الفصل الثانى
التعريف بالشماخ وحياته

اسمه :

يكاد يجمع المترجمون للشماخ، على أن اسمه « معقل » وأقدم من نص على ذلك — فيما نعلم — محمد بن حبيب[1] . وذكر بعضهم هذه التسمية، ثم قال : وقيل : « الهيثم » ، من هؤلاء أبو الفرج [2] حيث يقول : « واسمه معقل، وقيل : الهيثم، والصحيح معقل ، قال جبل بن جوال له فى قصة[3] كانت بينهما :

لعمرى لعلَّ الخيرَ لو تَعْلَمَانِه يَمُنُّ علينا مَعْقِلٌ ويَزِيدُ[4]
مَنِيحَةَ عَنْزٍ أو عطاءَ فَطِيمةٍ ألاَ إن نَيْلَ الثَّعْلَبِيّ زَهِيدُ »

ومنهم أبو عبيد البكرى قال : « والأول أكثر »[5] ، والصفدى قال : « ومعقل أصح »[6] وابن حجر[7] ، والسيوطى[8].

لقبه وكنيته :

والشماخ لقب ، وبه اشتهر ، ولذا عده ابن حبيب من الشعراء الذين غلبت[9]

---

(١) ألقاب الشعراء : ٣٠٨ .

(٢) الأغانى : ٨/٩٨ .

(٣) انظر الشعر والقصة فى : ديوان مزرد بن ضرار : ٦٩ ، قال شارح الديوان : ٧٠ : « وقال بعضهم كان اسم الشماخ هيثما » .

(٤) هو يزيد بن ضرار المعروف بمزرد أخو الشماخ .

(٥) سمط اللآلئ : ١/٥٨ .

(٦) الوافى بالوفيات : الأجزاء : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد : ص ٤٦٣ .

(٧) الإصابة : ٣/٢١٠ وفى هذا الموضع ترجم للشماخ ، وذكر بعض خبره ثم أعاد ذكره فى ٦/١٣٠ فى باب « الميم مع الغين » باسم : مغفل بن ضرار . . وهو خطأ جاء نتيجة لتصحيف الاسم ، وفى : ٦/٢٩٧ ذكره باسم الهيثم بن ضرار . وقال : « قال ابن أبى خيثمة : هو اسم الشماخ » قال ابن حجر : « والمعروف فيه أن اسمه معقل . قاله أبو الفرج الأصبهانى » .

(٨) شرح شواهد المغنى : ٣٠٣ وفيه : « الهشيم » تحريف .

(٩) ألقاب الشعراء : ٣٠٨ .

ألقابهم على أسمائهم ، وقد صرح فى شعره بلقبه هذا فقال :

أنا الجِحَاشِيُّ شَمَّاخٌ وليس أبى بِنِخْسَةٍ لنزيعٍ غير مَوْجُودِ[١]

وعلى هذا اللقب اقتصر بعض من ترجموا له ، كابن سلام[٢] ، والآمدى[٣] ، وغيرهما .

ولم أجد فى خبره ما يشير إلى السبب الذى من أجله لقب بهذا اللقب ، ويشبه أن يكون لقب به لشدة اعتداده بنفسه ، وشعوره القوى بمكانة أسرته بين قومه مما جعله يشمخ بأنفه عزة وتيهاً ، وقد يكون فى خبره وشعره ، ما يدل على هذا كما سيأتى بعد قليل .

وكان يكنى : أبا سعدة[٤] ، وقيل : أبا سعد[٥] ، وقال ابن حجر : « يكنى أبا سعيد ، وأبا كثير »[٦] .

ولم يصرح الشماخ فى شعره بكنيته ، كما لم يذكر فيه ولداً له ، إلا ما جاء من قوله :

تقولُ ابْنَتِى أَصبحتَ شيخاً ومن أَكنْ له لِدةً يُصْبِحْ من الشَّيب أَوْجَرَا[٧]

فلعل ابنته هذه كانت تدعى : سعدة ، وأنه بها كنى ، كما ذكر ابن حبيب ، ونحن نميل إلى ما ذهب إليه ابن حبيب ، فى أمر كنيته ، لا لأنه أقدم من تعرض لذكرها — فيما نعلم — فحسب ، وإنما لإفراده ذكر كنى الشعراء ، فى مؤلف خاص وكذلك ألقاب الشعراء ، مما يدل على سعة معرفته بهذا الموضوع ، وتمكنه فيه . على أنه كان عالماً بنسب العرب وأخبارها ، مشهوداً له بالحفظ والصدق ، موثقاً فى روايته[٨] .

---

(١) الديوان : القصيدة : ٤ البيت : ١٩ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ١٠٣ .

(٣) المؤتلف والمختلف : ١٣٨ .

(٤) انفرد بذكر هذه الكنية محمد بن حبيب فى : كنى الشعراء : ٢٩٠ .

(٥) ممن ذكر هذه الكنية : أبو عبيد البكرى فى سمط اللآلى : ١/٥٨ ، والسيوطى فى المزهر : ٢/٤٢٤ والجواليقى فى : شرح أدب الكاتب : ١٣٢ .

(٦) الإصابة : ٣ ٢١٠ . وعلى « أبو سعيد » اقتصر البطليوسى فى الاقتضاب : ٢٩٦ . وصاحب اللسان (جزأ — شمخ) وصاحب التاج (شمخ) .

(٧) الديوان : القصيدة ٥ البيت : ٦ .

(٨) انظر : إنباه الرواة : ٣ ١١٩ وما بعدها .

ولعل ما ذكر، من تكنيته «بأبى سعيد» أو «أبى سعد» تحريف لما ذكره ابن حبيب.

وأما ما انفرد به ابن حجر، من أنه كان يكنى «أبا كثير» أيضاً، فيرد عليه أن لأخيه مزرد ولداً يدعى «كثير»[١] وقد لا يكون من المستساغ أن يكون لكل من الأخوين ولد بهذا الاسم.

نسبه[٢] :

هو : معقل بن ضرار، بن سنان بن أمية[٣] بن عمرو بن جحاش بن بجالة، بن مازن بن ثعلبة، بن سعد بن ذبيان، بن بغيض بن ريث، بن غطفان بن سعد، بن قيس عيلان[٤] بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

---

(١) انظر : ديوان مزرد : ٨ وانظر هامشه أيضاً.

(٢) فى بعض تفاصيل نسبه اختلاف بزيادة أو نقص سنشير إلى بعضه، ونعرض عن بعضه الآخر؛ إذ أن تتبع هذا الاختلاف مما يطول فيه القول، دون أن يؤدى إلى نتيجة حاسمة. أو شبه حاسمة.

(٣) فى الأغانى : ٨ ٩٧ «أمية بن عمرو بن جحاش بن بجالة . .» وكذا فى ألقاب الشعراء ٣٠٨ : إلا أنه وقف بنسبه عند «جحاش»، وفى نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٨١ : «بنو أمية بفتح الهمزة والميم : بطن من ذبيان وهم بنو أمية بن سجالة [صوابها : بجالة] بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان» وفى : الوافى بالوفيات : الأجزاء : ١٢، ١٣، ١٤ فى مجلد : ص ٤٦٣ : «.. أمية ابن عمرو بن بجالة ..» ولعل الصواب «عمرو بن جحاش بن بجالة» ويدل لهذا قول البلاذرى فى أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٠٦ : «ولجحاش ولد اسمه عمرو». وفى طبقات فحول الشعراء : ١٠٣ «أمامة» ووقف بنسبه عنده. وكذا فى الإصابة : ٢١٠/٣ إلا أنه فيها «الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان بن أمامة بن عمرو بن جحاش بن بجالة..». وممن نقل عن الإصابة : الزركلى فى الأعلام : ٢٥٢/٣ حيث قال : «والشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازنى الذبيانى الغطفانى» وتبعه صاحب معجم المؤلفين ٣٠٦/٤. وفى أنساب الأشراف : ١٢ لوحة : ١٠٤ «. . أمة بن جحاش» ووقف بنسبه عنده، وفى آمالى اليزيدى : ٥٧ «وسمعت أبا جعفر [محمد بن حبيب] يقول : يقال للرجل من بنى أمية : أموى، فإذا كان من الأنصار أو من بنى غطفان، من بنى أمة رجل من بنى جحاش بن ثعلبة بن ذبيان أو أمة ابن ذبيان أو أمة من الأنصار قلت أموى . .» أى بفتح الهمزة. وقال أبو أحمد العسكرى فى التصحيف والتحريف : ٤٩٣ «وفى قيس بنو أمة بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان» وهو الذى عناه الشماخ بقوله :

ألا تلك ابنة الأموى قالت أراك اليوم جسمك كالرجيع (الديوان : ٦/١٠)

(٤) فى التصحيف والتحريف لأبى أحمد العسكرى : ٤٦٧ «تقول قيس عيلان وقيس بن عيلان وكلاهما جائز. .» وقد علل لكلا الوجهين الجواليقى فى شرح أدب الكاتب : ٣٢٢. وانظر أيضاً : جمهرة اللغة : ٢٩٦/١. ونهاية الأرب فى أنساب العرب : ٤٠٤، وصبح الأعشى : ٣٣٩/١.

وقيل : هو معقل بن ضرار بن حرملة بن صيفى بن إياس بن عبد غنم بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان[١] . وهو ما ذهب إليه الكوفيون فى نسبه ، كما ذكر أبو الفرج[٢] ولعل مما يرجح القول الثانى ، قول مزرد أخى الشماخ :

وما نسبى فى عبد غنم بضولة إلى عبد غنم انتمى ثم انتمى[٣]

وقد أجمعت مصادر نسبه على أنه من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، لم يخالف عن ذلك إلا أبو العباس المبرد ، حيث نسبه إلى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، فقال : « والشماخ بن ضرار المرى . . » وتابعه على ذلك البغدادى ، والأبشيهى[٤] ، وهو خلاف لا يقوم[٥] .

---

(١) كذا فى الأغانى : ٨/٩٨ . وفى شرح الشواهد الكبرى للعينى : ٤/٥٨٧ إلا أن الأغانى انفرد بقوله : « . . عبد بن عثمان بن جحاش . .» ولم أجد « عثمان » هذا فى نسب ذبيان ، وأغلب الظن أن الكلمة محرفة ، وأن الصواب « عبد غنم » بدون ابن بينهما كما فى المصادر الأخرى ؛ وهكذا نسب أخوه مزرد فى ديوانه : ٦٨ — ٦٩ ، وهكذا نسبه الآمدى فى المؤتلف والمختلف : ١٣٨ إلا أنه قال : « . . ابن صيفى بن أصرم بن إياس . . » إلخ ، وكرر ذلك فى نسب « جبار بن جزء » ابن أخى الشماخ : ٩٨ ، وفى نسب مزرد أخى الشماخ : ١٩٠ . وقال البلاذرى فى أنساب الأشراف : ١٢ لوحة : ١١٠٤ : « ويقال هو ضرار بن صيفى بن أصرم بن إياس . . » .

(٢) الأغانى : ٨/٩٨ .

(٣) ديوانه : ٣٠ . فقد نص على انتسابه لعبد غنم .

(٤) الكامل : ١/٨٨ ، والخزانة : ١/٤٥٥ ، والمستطرف : ١/١١٦ وفيه « المزنى » تصحيف وتحريف .

(٥) صرح الشماخ فى شعره بأنه - ماشى (انظر الديوان : القصيدة : ٤ البيت : ١٩) وجماش ليس من بنى مرة بن عوف (راجع فى ولد مرة بن عوف : أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١٠٧٩ والمعارف : ٢٨ ، ونسب عدنان وقحطان : ١١ وما بعدها ، وجمهرة انساب العرب : ٢٣٩ — ٢٤٢). ثم إن الآمدى روى شعراً لجبار بن جزء بن أخى الشماخ يرثى عمه الشماخ وفيه يقول :

وأعز ثعلبة بن سعد إذ ثوى وهاب كل مقلص ممراح

والمؤتلف والمختلف (٩٨) ، وهذا نص يدل على أنه من ثعلبة بن سعد ، لا من مرة بن عوف بن سعد .

متى عاش ؟

لا خلاف فى أن الشماخ مخضرم[١] ، أدرك الجاهلية[٢] والإسلام ، وقد امتدت حياته فى الإسلام ، حتى سلخ من خلافة عثمان زمناً ليس بالقصير (كما سيأتى فى الكلام على وفاته) ومعنى هذا أنه عاش بعد الهجرة ما يزيد على ربع قرن ، فإذا أضفنا إلى ذلك الفترة من مبعث النبى (ص) إلى هجرته ، تبين لنا أنه عاش فى الإسلام ما يقرب من أربعين عاماً ، وإذا علمنا أنه مات غازياً ، بآذربيجان وأرمينية فى عهد عثمان ، وأنه كان يتباهى قبل غزوته التى مات فيها ، بقوته وفروسيته حيث يقول :

وقد علمتْ خَيْلٌ بِمُوقَانَ أَنَّنِى ... أَنا الفارِسُ الحامِى لَدَى الموتِ نَزَّالِ[٣]

أمكننا أن نرجح أن عمره عند وفاته ، لم يكن يزيد على الستين ، أو الخامسة والستين ، على أكثر تقدير ، وهذا يعنى أنه عاش فى الجاهلية ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً.

---

(١) جاء فى اللسان (خضرم) « الخضرمة قطع إحدى الأذنين ، وهى سمة الجاهلية . . وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم ، فلما جاء الإسلام ، أمرهم النبى (ص) أن يخضرموا ، من غير الموضع الذى يخضرم منه أهل الجاهلية ، وأصل الخضرمة : أن يجعل الشىء بين بين . . ومنه قيل لكل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم ؛ لأنه أدرك الخضرمتين . . ورجل مخضرم : إذا كان نصف عمره فى الجاهلية ، ونصفه فى الإسلام وشاعر مخضرم : أدرك الجاهلية والإسلام ، قال ابن برى : أكثر أهل اللغة على أنه : مخضرم بكسر الراء ؛ لأن الجاهلية لما دخلوا فى الإسلام خضرموا آذان إبلهم ، ليكون علامة لإسلامهم ، إن أغير عليها أو حوربوا ، ويقال لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم [بكسر الراء] وأما من قال : مخضرم بفتح الراء : فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الإسلام . وقال ابن خالوية : خضرم : خلط ، ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام » . وهذا كله فى الخضرمة بالمعنى التاريخى ، أما بمعناها الأدبى : فالمخضرم هو الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، وأنتج فى الإسلام سواء أسلم أم لم يسلم ، والمخضرمون هم الذين لهم أدب جاهلى وأدب إسلامى (عن شعر المخضرمين للدكتور حامد الحولى : ٨ رسالة الدكتوراه مودعة بمكتبة الرسائل بكلية دار العلوم سنة ١٩٥٦) . وفى معنى الخضرمة والمخضرم آراء أخر (انظر : الصاحبى : ٥٨ والعمدة ٧٢/١ ، والمعارف : ١٩٣ ، والحيوان : ٣٣٠/١ ، وتاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى للسباعى بيومى : ١١٧ " الطبعة الثانية سنة ١٩٣٥ ") .

(٢) الجاهلية هنا من الجهل ، الذى هو السفه والغضب والحمية والمفاخرة ، وهى أمور أوضح ما كانت فى حياة العرب قبل الإسلام ، ومن ثم أطلقت « الجاهلية » على العهد الذى عاشت فيه الأمة العربية قبل بعثة الرسول (ص) (انظر : فجر الإسلام : ٨٣/١ — ٨٤ ففيه زيادة تفصيل ، وبلوغ الأرب للألوسى : ١٥/١ وما يليها) .

(٣) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ البيت : ٩ .

وليس لنا أن نطمع فى تحديد زمن مولده . فقد أغفل التاريخ ذكر ميلاده فيما أغفل . ولعل ما ذكرناه يقارب الصواب .

الشماخ فى صباه :

إذا صح ما ذهبنا إليه فى الفقرة السابقة ، يكون الشماخ قد قضى فترة صباه ، ومعظم أيام شبابه، فى الجاهلية ، وكل ما وعاه لنا التاريخ ، وما يمكن أن نستنتجه من شعره ، مما يتصل بهذه الفترة من حياته ، لا يفى بحاجة الباحث ، ولا يعدو أن يكون لمحات سريعة لا تغنى ، ولا تنقع الغلة .

وإذن . فحديثنا عن هذه الفترة ، التى تكونت فيها شخصية شاعرنا ، تلك الفترة الهامة، المبكرة، التى تتحدد فيها معالم الشخصية ، عقليًّا ، ونفسيًّا ، واجتماعيًّا ، سوف تتخلله الفجوات الواسعة ، التى لا سبيل إلى تغطيتها .

يقول الجاحظ : « وبنو ضرار ، أحد بنى ثعلبة بن سعد ، لما مات أبوهم ، وترك الثلاثة الشعراء صبياناً وهم : شماخ ، ومزرد ، وجزء ، أرادت أمهم — وهى أم أوس — أن تزوّج رجلا يسمى أوساً [1] وكان أوس هذا شاعراً ، فلما رآه بنو ضرار بفناء أمهم للخطبة ، تناول شماخ حبل الدلو ثم متح وهو يقول :

أُمُّ أُوَيْسٍ نَكَحَتْ أُوَيْسَا

وجاء مزرِّد فتناول الحبل فقال :

أَعْجَبَهَا حَدَارَةً وكَيْسَا

وجاء جزء فتناول الحبل فقال :

أَصْدَقَ مِنْهَا لَجْبَةً وتَيْسَا

فلما سمع أوس رجز الصبيان بها ، هرب وتركها »[2] .

وهذا الخبر ، يدل على أن شاعرنا ذاق مرارة اليتم وهو صبى ، وأنه فى هذه السن

---

(١) هو فى : أنساب الأشراف : ١٢ لوحة : ١١٠٤ « أويس القرنى العابد » .

(٢) البيان والتبيين : ٤ / ٣٤ . الحدارة : الامتلاء واجتماع الخلق فى سمن ، أصدق منها : جعل لها صداقاً ، اللجبة : الشاة القليلة اللحم .

المبكرة ، كان يدرك مسئولية أمه حيال بنيها الصغار ، وأنه ينبغي لها أن تتفرغ لرعايتهم ، فلا تشغل نفسها بالزوج ؛ ولذا ما إن أحس بأنها توشك أن ترتكب هذا الخطأ ، حتى أقدم هو وأخواه — فى جرأة — على التعبير عن معارضتهم هذا الزواج ، وساقوا رأيهم فى أسلوب تهكمى لاذع ، فكان أن أخفقت الخطبة ، وهرب الخاطب ، وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على جرأة ونضج مبكرين .

عاش شاعرنا — إذن — بعد موت أبيه فى كنف أمه ، وقد تفرغت الأم — بعد إخفاق محاولتها الزواج بعد أبيهم — لرعايته هو وأخويه ، ولكننا لا نعرف هل خلف لهم أبوهم من المال ، ما يمكنهم من العيش فى يسر ، أو لا ؟ ومع ذلك ، فأغلب الظن أن فقد عائلهم ، قد وضعهم فى ظروف جديدة ، دفعتهم — على الأقل — إلى الإسهام مع أمهم فى تدبير أمور معيشتهم ، أو بعبارة أخرى ، اضطرتهم إلى لون آخر من الحياة ، فيه من الجد ، أكثر مما فى حياة أترابهم من الصبية الذين يعيشون فى كنف آبائهم ، لا تشغلهم عن اللهو واللعب تبعات العيش ، ومتاعب كسب الرزق ، ومعنى هذا ، أن شاعرنا لم يتح له أن يتمتع فى صباه ، بمثل ما يتمتع به الصبيان الذين كفوا مئونة العيش ؛ لوجود عائلهم .

وأحسب أن هذا الجد قد استغرق فترة شبابه ، فشغله عن كثير مما يشغل به الشباب عادة ، من لهو وانطلاق وصبوة ، وأحسب كذلك أن أثر هذه الحياة الجادة المبكرة ، قد انسحب على حياته كلها .

فإذا انقلبنا نتلمس أثر ذلك فى شعره ، أمكننا أن نضرب المثل بظاهرتين :

أولاهما : ما يلاحظ من أن ذلك اللون من الشعر ، الذى يعبر فيه الشاعر عادة عن صبواته ولهوه فى شبابه ، يكاد يكون معدوماً بالنسبة لشعر الشراب ، وما يتصل به ، قليل الخطر بالنسبة للشعر الذى يتحدث عن النساء والحب ، فهو لم يتحدث عن الشراب إلا فى بيتين اثنين فى كل شعره الذى بين أيدينا .

أحدهما على سبيل التشبيه وهو قوله :

فبت كأننى سافهت خمراً معتقــة حمياها تدور (١)

---

(١) الديوان : القصيدة : ٦ البيت : ٥ .

والثانى على سبيل التسلية ، وذلك قوله ، من قصيدته التى قالها قبل إحدى الغارات ، التى اشترك فيها بأذربيجان وأرمينية :

ألا يا اسقيانى قبل غارة سنجال وقبل منايا باكرات وآجال [1]

ولا أحسبه قد عنى ما قال .

أما حديث الغزل والصبوة فى ديوانه فقليل نسبيا ، وتعوزه حرارة العاطفة وصدقها ، فى غير قليل منه ، ويمكن أن نعد بعضه من قبيل ما جرت به عادة الشعراء ، من افتتاح قصائدهم ، فى المديح والهجاء والفخر وغيرها ، بالنسيب والوقوف على الأطلال ، وهو ما يعرف فى تاريخ الشعر العربى القديم ، بالمقدمة الغزلية التقليدية [2] .

أما الظاهرة الثانية : فتتمثل فيما يصوره بعض شعره ، من شدة اهتمامه بإصلاح ماله والمحافظة عليه ، والمشقة على نفسه فى رعايته وحفظه ، فهو يرى أن المال يحفظ على الإنسان عفة نفسه ، ويدفع عنه النوائب التى تعتريه من الأيام ، ويصون ماء وجهه عن المذلة ، والتعرض لسؤال الناس ، ويمكنه من أن يعيش محافظا على كرامته ومجد آبائه ، استمع إليه يقول — وقد عوتب على تشديده على نفسه فى المعيشة ، ولزومه الإبل والتعزب فيها :

أعائِشُ مالِأَهْلك لا أراهم يُضِيعُون الهِجَانَ مع المُضِيع
وكيف يُضيعُ صاحبُ مُدفئاتٍ على أَثْبَاجِهِنَّ من الصَّقِيعِ

إلى أن يقول :

لَمَالُ المرء يُصْلحِه فَيُغْنى مَفَاقِرَه أعف من القُنوع
يسدُّ به نوائبَ تَعْتَريه من الأَيَّام كالنَّهَل الشُّرُوع
أَلاَ تلك ابنة الأَمَوىّ قالتْ أَراكَ اليومَ جِسْمك كالرَّجيع
كأَنَّ نَطَاةَ خَيْبَر زوَّدتْه بَكورَ الوِرْد رَيِّثَةِ القُلوعِ
ولو أَنِّى أَشاءُ كَنَنْت نفْسى إلى لَبَّاتِ هَيْكلةٍ شَمُوع

---

(١) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ البيت : ٣ .

(٢) انظر دراستنا لفن النسيب فى شعره : ص ٢٢٣ وما بعدها ، من هذا الكتاب .

تلاعبُنِي إذا ما شئت خَوْدٌ على الأَنْمَاطِ ذات حَشًى قَطيع

. . . . . .

ولكنِّى إلى تَرِكَاتِ قوْمى بَقِيت وغَادَرُونِى كالخَلِيع[1]

وفيما عدا هذا يصمت التاريخ، ويقصر شعره ، فلا يحفظ لنا ما أهمله التاريخ، من خبر حياته ، فى هذه الفترة فى جوانبها المختلفة .

ويلاحظ أن تلك ظاهرة شائعة فى تاريخ شعرائنا القدامى بعامة ، والجاهليين والمخضرمين منهم بخاصة ، فنحن لا نكاد نعرف شيئاً عن نشأة وأوليات الكثيرين منهم .

وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن هؤلاء النفر من العلماء، الذين تصدوا لجمع الشعر وتدوينه فى عصر التدوين ، قد اهتموا بجمع الشعر — لسبب أو لآخر — أكثر من اهتمامهم بتدوين خبر الشعراء ، وسيرة حياتهم ، وقد يكون منهم من وجه همته لذلك، إلا أن يد الزمن قد عبثت بمدوناتهم ، فلم يصل إلينا منها إلا القليل ، الذى لا ينتج سيرة، أو شبه سيرة ، ولعل من شواهد ذلك، ما تقع عليه أعيننا، من أسماء كثير من المؤلفات فى أخبار الشعراء، لم يبق لنا منها إلا أسماؤها، أمامصيرها فعلمه عند الله وحده .

أسرته :

حفظ لنا التاريخ طرفاً من خبر أسرته ، وما وصل إلينا — على قلته — يلقى بعض الضوء ، على هذه الأسرة التى ولد شاعرنا وشب بينها .

أما أبوه « ضرار » فلا نعرف من أمره شيئاً، غير أنه توفى، والشماخ وأخواه صبية[2]. وأنه كان رجلا جميلا منعوتاً[3] بمعنى أنه كان معروفاً بالكرم ، وخصال الخير .

وأحسب أنه كان يتمتع بمكانة غير هينة بين قومه ، وهى مكانة أتاحت للشماخ وأخيه مزرد أن يفخرا به ، ويعتزا بالانتساب إليه ، يقول الشماخ :

---

(١) الديوان : القصيدة : (١٠) .
(٢) البيان والتبيين : ٣٤/٤ .
(٣) شرح ديوان كعب بن زهير : ٦٦ .

أَنا الجِحَاشِىُّ شَمَّاخٌ وليس أَبى بِنِخْسَةٍ لنزيع غير موجود
منه نُجِلْت ولم يُوشَبْ به حَسَبِى لَيًّا كما عُصِبَ العِلْبَاءُ بالعود (١)

ويقول مزرد :

إذا حَدَبت ذبيان حولى وجدتنى عزيزًا يردُّ الضيمَ عنِّى شهودُها
نَمَانِى إلى سَادَاتِها فى ذرَا العُلاَ أَبٌ أَورث المجدَ التَّلِيد جدودُها (٢)

إلا أننا نجد ابن حبيب يعد فى حمقى العرب : « ضرار بن معقل أخو بنى جحاش أبو الشماخ الشاعر »(٣) والخبر قد وقع فيه خلط فى الاسم ، فالمعروف أن « معقلا » هو اسم الشماخ نفسه ، لا اسم جده .

ولم يذكر لنا ابن حبيب ، السبب الذى من أجله يعد أبو الشماخ من الحمقى ، ولم نجد من أشار إلى شىء من هذا غيره .

وأما أمه ، فيقول عنها أبو الفرج : « وأم الشماخ أنمارية(٤) من بنات الخرشب(٥) ويقال : إنهن من أنجب نساء العرب ، واسمها : معاذة بنت بجير بن خالد ابن إياس . . »(٦).

وقيل : هى معاذة بنت بجير بن خلف بن إياس(٧) ، وقال ابن قتيبة :

---

(١) الديوان : القصيدة : ٤ البيتين : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) ديوانه : ٥٩ ، حدبت : تعطفت .

(٣) المحبر : ٣٨١ .

(٤) نسبة إلى أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان ، قال ابن قتيبة فى المعارف : ٢٧ : « وأنمار ابن بغيض قليل، ومنهم فاطمة بنت الخرشب ، أم الربيع بن زياد وإخوته الكملة » والكملة الأربعة أبناء فاطمة بنت الخرشب هم : ربيع الكامل ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس ، وقيس الجواد . أبناء زياد العبسى .

(٥) الخرشب : اسمه : سلمة بن عمرو بن مضر بن حارثة بن طريف بن أنمار بن بغيض . . والخرشب لقب له (وانظر : أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٤٢) .

(٦) الأغانى : ٩٨/٨ .

(٧) الوافى بالوفيات : الأجزاء : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد : ص ٤٦٣ . وانظر أيضا : الإصابة : ٢١٠/٣ وفى رواية لأبى الفرج بسنده عن المفضل الضبى ، أنه قال : « معاذة بنت بجير ابن خلف » الأغانى : ٩٩/٨ .

« معاذة بنت خلف ، وتكنى أم أوس »[١] فهى إذن غطفانية حسيبة كأبيه ، وتقدم أن ضراراً زوجها مات عنها ، وما زال أولاده منها صبية صغاراً ، وأنها حاولت أن تتزوج بعده فأخفقت ، بسبب هؤلاء الصبية ، ولم نسمع أنها كررت هذه المحاولة مرة أخرى ، وأغلب الظن أنها أعرضت بعدها عن الزواج ، وانصرفت ترعى بنيها .

ويبدو أنها كانت تؤثر الشماخ وجزءاً بمزيد من العطف على أخيهما مزرد ، ففى خبر للأصمعى : أنها كانت « تؤثر عيالها بالزاد عليه ، وكان ذلك مما يضر به ويحفظه ... »[٢] وربما كان لما عرف به مزرد ، من شراسة وسوء خلق وشره ، أثر فى هذه التفرقة فى المعاملة ، بينه وبين أخويه . وفى نفس الخبر السابق عن الأصمعى ، أن أمه « ذهبت يوماً فى بعض حقوق أهلها ، وخلفت مزرداً فى بيتها ورحلها ، فدخل الخيمة ، فأخذ صاعين من دقيق ، وصاعاً من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضه ببعض فأكله ، ثم أنشأ يقول :

ولما مَضَتْ أُمِّى تزورُ عيالَها أَغَرْتُ على العِكْمِ الذى كان تَمْنَع

إلى أن قال :

وقلتُ لبطنى أَبْشِرى اليوم إنَّه حِمًى آمناً مما تنيدُ وتجمع
فإن كنت مَصْفوراً فهذا دواؤهُ وإن كنت غرثاناً فذا يوم تشبع[٣]

على أننا نجد أيضاً فى شعر مزرد قوله :

ظللنا نُصَادِى أُمَّنا عن حَمِيتِها كأَهل الشَّمُوسِ كلُّهم يتودّد
فجاءت بها صفراءَ ذات أَسِرَّةٍ تكاد عليها ربَّة النِّحْى تكمد[٤]

فهل كان ذلك منها لبخل وتقتير على بنيها ؟

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٢٧٥ ، وكنيتها « أم أوس » أيضا ، فى البيان والتبيين : ٤/٣٤ .
(٢) العقد الفريد : ٤/٢٩٩ .
(٣) العقد الفريد : ٤/٢٩٩ وفيه الأبيات كاملة مع حكايتها ، والأبيات أيضاً فى ملحق ديوانه : ٧٩ — ٨٠ وانظر هامشه ، والعكم : النمط تجعله المرأة كالوعاء تدخر فيه ذخيرتها .
(٤) سمط اللآلى : ١/٥٣٨ . نصادى : من المصاداة : وهى المداجاة والمداراة . الحميت : الزق الذى فيه السمن وفى (شرح المختار من شعر بشار : ٢٥٢) « والوطب : زق اللبن ، و إذا كان فيه الخمر أو الدبس فهو زق أو حميت ، فإذا كان فيه السمن فهو نحى » .

إن شعر الشماخ لا يشير إلى شيء من هذا ، بل هو لم يشر إلى أمه فى شعره إطلاقاً ، بينما نجد شيئاً من ذلك فى شعر مزرد ، والذى يظهر أن علاقة الشماخ بأمه كانت طيبة ، وأحسب أن ذلك يرجع إلى أنه لم يكن سيئ الخلق كأخيه مزرد ، الذى بلغ من سوء خلقه، أن كاد يعرض أمه لما تكره، من تعريض الشعراء بها من أمثال : الحطيئة ، وكعب بن زهير ، لولا أن تداركت الأمر بحكمة وذكاء ، روى البلاذرى قال : « قالوا وكان مزرد بذيا عرّيضاً ، فطلب من أمه شيئاً فلم تعطه إياه فقال لها : والله لأعرضنك لأخبث شاعر من مضر ، وقال :

حكَّ الحمارُ برأس فَيْشته أُمَّ الحُطَيْئة من بنى عبس

فأتت أمه الحطيئة ، فطلبت إليه ألا يهجوه ، وأخبرته خبرها فأمسك »[١].

ويروى أيضاً : أنه كان لأمهم « ابن عم مارد ، وكان دميماً أحمر ، فجاءت ببنيها يشبهون ابن عمها ذلك الدميم ، فلما هجا[٢] مزرد كعباً عضه كعب فى شعره ، وعرض لهم أنهم بنو ذلك الرجل الدميم[٣]، فلما سمعت أم الشماخ ذلك ، عرفت ما أراد به ، فقالت : ما كنتم لتنتهوا حتى تجروا إلىّ بعض ما أكره ، فبكت إلى مزرد ، وناشدته الله لما أعرض عن كعب ، فكفوا عن كعب وكف كعب عنهم ، والناس لا يعلمون ما أراد بمقالته تلك ، ولكنها هى عرفت ما قصد له »[٤] .

وليس فيما لدينا من شعر الشماخ ، ما يدل على اشتراكه فى هذه المعركة ، ومع ذلك فبين أيدينا ، ما قد يفهم أنه كان للشماخ نوع مشاركة فى تعريض أمه للشعراء ، روى البلاذرى قال : « حدثنى عمرو بن أبى عمرو الشيبانى قال : كان الشماخ وأخواه : يزيد وجزء شعراء، فقالت لهم أمهم : ألا تستحون لى ولأحسابكم من أن

---

(١) أنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٦ .

(٢) ينظر فى المهاجاة بين كعب ومزرد ، وخبر ذلك ، وما قاله كل منهما : شرح ديوان كعب ابن زهير : ٦١ وما بعدها .

(٣) وذلك قول كعب بن زهير :

فإن تسأل الأقوام عنى فإننى أنا ابن أبى سلمى على رغم من رغم
وأشبهته من بين من وطئ الحصى ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم

(شرح ديوان كعب : ٦٤-٦٥)

(٤) شرح ديوان كعب بن زهير : ٦٦ .

تعرضونى لشعراء العرب ، فقال لها يزيد (وهو مزرد) : ما ربطت أنثى من العرب بفنائها ، مثل أجر [جمع جرو] ربطتهم فاصبرى ، فإن أمهات الشعراء يلقين ما تلقين وأكثر »[١].

ويروى أبو الفرج بسنده عن « عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال : قال مزرد لأمه : كان كعب بن زهير لا يهابنى وهو اليوم يهابنى ، فقالت : يا بنى نعم ، إنه يرى جرو الهراش موثقاً ببابك ، تعنى أخاه الشماخ »[٢].

ويسوق أبو الفرج هذا الخبر بصورة أخرى ، قريبة مما رواه البلاذرى ، فيروى بسنده « عن ابن الأعرابى عن المفضل قال : قالت معاذة بنت بجير بن خلف للشماخ ومزرد : عرضتمانى لشعراء العرب ، الحطيئة وكعب بن زهير ، فقالا : كلا لا تخافى ، قالت : فما يؤمننى ؟ قالا : إنك ربطت بباب بيتك جروى هراش ، لا يجترئ أحد عليهما ، يعنيان أنفسهما »[٣] .

وقد روى لكل من كعب ومزرد شعر فى هذه المعركة الكلامية ، أما الشماخ فلم يرد لنا شىء من الشعر له فيها . وأحسب أنه لو كانت له فيها مشاركة ، كما توحى هذه الأخبار لاشتهرت ، وروى ما قاله فيها ، كما روى هجاؤه فى الربيع بن علباء السلمى[٤] مع أنه لا شهرة له ، بخلاف كعب بن زهير ، أضف إلى ذلك أن شعر الهجاء فى ديوانه — سواء من حيث الكم أو الكيف — لا يصوره هجاء طويل الباع فى الهجاء[٥].

وللشماخ أخوان من أبيه وأمه ، وهما شاعران أيضاً : أحدهما : مزرد واسمه : يزيد . والآخر : جزء[٦] ، أما مزرد — فهو أسن من الشماخ[٧] ، وقد ترجم له

---

(١) أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٠٤ .

(٢) الأغانى : ٩٩/٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) انظر الديوان : القصيدة : ٤ وقد ترجمنا للربيع هناك . وسيأتى الكلام على اتصال الشماخ به : ص ١٤١ .

(٥) انظر دارستنا للهجاء فى شعره ٢٥٣ وما بعدها .

(٦) الأغانى : ٩٨/٨ ، وأنساب الأشراف : ١٢ /لوحة ١١٠٤ ، والإصابة : ٢١١/٣ وفيها « جرين » بدل جزء وهو تحريف ، والوافى بالوفيات : ص ٤٦٣ جزء : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد ، والخزانة : ١١٧/٢ .

(٧) معجم الشعراء : ٤٩٦ ، والإصابة نقلا عن المرزبانى : ٨٥/٦ .

ابن حجر فى الصحابة ، وقال : « وذكره العسكرى فى باب من أدرك النبى من الشعراء ، وحكى بعضهم : أنه قدم على النبى فأنشده شعراً »[١] . وهذا الشعر الذى أنشده بين يدى الرسول (ص) فى هجاء بنى أنمار بن بغيض هو قوله :

تَعَلَّم رسولَ الله أَنَّا كأَنَّنا أَفَأْنَا بأَنْمَارٍ ثَعالب ذِى غسل
تعلَّم رسولَ الله لم أَر مثلهم أَجَرَّ على الأَدْنَى وأَحْرَم للفضل[٢]

وذكره الآمدى ، وقال : « الشاعر الفارس المشهور .. »[٣] وأخباره قليلة ، وأكثرها مختلط بأخبار الشماخ التى طغت عليها ، وعنه يقول المرزبانى : « . . وله أشعار وشهرة ، وكان هجاء خبيث اللسان »[٤] ، حتى ليقال : إنه أقسم لا ينزل به ضيف إلا هجاه ، ولا يتنكب بيته أحد إلا هجاه[٥] .

ويقال : إنه أقلع عن الهجاء فى آخر حياته ، بعد أن استُعدى عليه الخليفة عثمان بن عفان ، فقال :

تَبَرَّأْتُ من شَتْم الرجالِ بِتَوبةٍ إلى الله منِّى لا يُنَادى وليدُها[٦]

وقد يكون ولعه بالهجاء ، وكثرة تعرضه للناس بالشر ، مما طامن من شهرته ، وقلل من اهتمام الرواة بخبره وشعره ، ولعل مصداق ذلك ما رواه أبو نصر (أحمد بن حاتم الباهلى) عن الأصمعى ، وقد سأله عن مزرد . فقال الأصمعى : ليس بدون الشماخ ، ولكنه أفسد شعره بما يهجو الناس »[٧] .

وقد قدمنا طرفاً من خبره مع أمه ، مما يدل على أنه كان شرهاً[٨] ميالا للشر .

---

(١) الإصابة : ٨٥/٦ : وانظر أيضا نفس المصدر ٣٤٤/٦ ، والاستيعاب : ٣٠٢/١ ، وأسد الغابة نقلا عن الاستيعاب : ٣٥١/٤ .

(٢) انظر : الشعر والشعراء : ٢٧٤/١ ، والعمدة : ٥٥/١ ، والبيتان فى ديوانه : ٦٣ ، وهما ينسبان للشماخ فى بعض المصادر (انظر ملحق الديوان : القطعة : ٣٧) ، والصواب أنهما لمزرد .

(٣) المؤتلف والمختلف : ١٩٠ (كرنكو) .

(٤) معجم الشعراء : ٤٩٦ .

(٥) انظر : ديوانه : ٦٦ ، والعمدة : ٥٥/١ ، والإصابة : ٨٥/٦ ، ومعجم الشعراء : ٤٩٦ .

(٦) أنساب الأشراف : ١٢ / لوحة ١١٠٦ ، والبيت فى ديوانه : ٥٧ .

(٧) فحولة الشعراء (مطبوع) : ٢١ .

(٨) فى العقد الفريد (٢٢٩/٤) خبر عن الأصمعى فى مجلس الرشيد يصف فيه جشع مزرد ونهمه .

ولمزرد ولدان شاعران[١] أيضاً ، هما : حسن وكثير ، ويبدو أنهما كانا على علاقة طيبة بعمهما الشماخ ؛ فقد كان يصحبهما فى بعض رحلاته[٢] .

وقد يكون حسن العلاقة بين الشماخ وابنى أخيه ، انعكاس لحسنها بين الأخوين ، بيد أننا نجد فى شعر الشماخ ، ما يشير إلى أن هذه العلاقة الطيبة ، كانت تتعرض أحياناً لبعض الأزمات ، من ذلك ، أن الشماخ كان قد لزمه دين فاستعان أخاه مزردا (يزيد) فلم يعنه فقال :

تذكَّرتُ لمَّا أَثْقلَ الدَّيْنُ كاهِلى وَصَانَ يَزِيد مالَه وتعذَّرا
رجالاً مَضَوْا منِّى فلستُ مُقَايِضاً بهم أَبدًا من سائر الناس مَعْشَرا[٣]

وأما جزء ، فنكاد لا نعرف من أمره شيئاً ، غير أن ابن حجر ذكره فى الإصابة فى القسم الثالث : وهم المخضرمون الذين لم يروا الرسول ، وليسوا بصحابة ، وقال : « جزء بن ضرار الغطفانى ، ذكره المرزبانى فى معجمه وقال : شاعر مخضرم .. »[٤] ، وروى له شعراً فى رثاء عمر بن الخطاب[٥] .

وكما أهمل الرواة خبره أهملوا شعره ، فلا نعرف له ديواناً ، وشعره المذكور فى المصادر قليل[٦] .

وقد ساءت العلاقة بين الشماخ وأخيه جزء ، حتى لقد هجاه الشماخ بقصيدة ، لم يبق لنا منها إلا قوله :

لنا صاحبٌ قد خَانَ من أَجْلِ نَظْرةٍ سَقِيم الفؤادِ حُبُّ كَلْبَةَ شَاغِلُه[٧]

---

(١) لكثير شعر فى اللسان (بلل – زول – خيل) والتاج (ضاء) ، والألفاظ لابن السكيت : ١٦٦ وله رجز فى المعانى الكبير : ٢/١١٠٤ ، ولحسن شعر فى اللسان (جنب) .

(٢) انظر مقدمه الراوى لأراجيز ديوان الشماخ (نشر دار المعارف بتحقيق المؤلف)

(٣) الديوان : القصيدة : ٥ : البيتين : ٩ ، ١٠ .

(٤) الإصابة : ١/٢٧٣ . ومعجم الشعراء للمرزبانى الذى بين أيدينا الآن ، يبدأ بحرف العين ، ومن ثم فليس فيه ترجمة جزء المشار إليها فى الإصابة .

(٥) الشعر بتمامه ، فى ملحق الديوان : القطعة : ٣١ وقد نسب أيضا للشماخ ولمزرود ، وقد ذكرنا هناك ما نرجحه فى نسبته .

(٦) لجزء شعر فى : شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ١/٣٤٣ وما بعدها ، والتبريزى : ١/١٨٠ – ١٨١ .

(٧) ملحق الديوان : رقم : ٣٨ .

وماتا منها جرين .

أما سبب ذلك، فقد ذكره أبو الفرج عن ابن الكلبي[١] ومؤداه: أن الشماخ أحب امرأة تدعى كلبة بنت جوال[٢] أخت جبل بن جوال الشاعر، وأراد أن يتزوجها، ثم خرج فى سفر له، فتزوجها جزء، فآلى الشماخ ألا يكلمه أبداً وهجاه[٣] .

ولجزء ولد يدعى «جبار» ترجم له الآمدى، وروى له أبياتاً فى رثاء عمه الشماخ، تدل على ما كان يكنه لعمه من حب وتقدير، وتنطق باللوعة والحزن لفقده . وذلك قوله :

يا عين بَكِّى الدَّمْعَ كلَّ صباح ... وابْكِى على الشماخ كل رَوَاح
يا واهبَ الجُرْدِ الجياد بِلُجْمِها ... ومُمَوِّل الصُّعْلُوك بعد جُناح
وأَعزَّ ثعلبة بن سَعدٍ إذْ ثَوى ... وهَّاب كلِّ مُقَلَّص مِمْراح
وإذا غشيتُ ديار قومى بالضحى ... فاضت دموعى غير ذات نِصَاحِ
أَو كالجُمَانِ على الترائب خَانَهُ ... سِلْكُ النِّظام فَطَاحَ كلَّ مَطَاح[٤]

كما أن جباراً هذا، قد صحب عمه الشماخ فى بعض رحلاته، ونافح عنه ضد الجليح بن شميذ، برجز مذكور فى أراجيز الديوان[٥] .

هذه هى أسرة الشماخ، وأعنى بها أسرته التى نشأ وشب بين أفرادها، وهى أسرة كان للشعر فيها النصيب الأوفر من أفرادها، فهو وأخواه شعراء، وأبناء أخويه أيضاً شعراء، كما أنها أسرة حسيبة، فقد كان «بنو ضرار فى حسب من قومهم، من بنى ثعلبة بن سعد، ثم من بنى جحاش»[٦] .

---

(١) ترجمنا له عند ذكر البيت فى ملحق الديوان .

(٢) يقول الجاحظ فى الحيوان (١/٣٤٨) «وكانت العرب تسمى بكلب وحمار وجعل وقرد .. على التفاؤل فى ذلك ..» وعلى هذا، فقد يكون اسم هذه المرأة من هذا القبيل .

(٣) القصة بتمامها مع البيت فى الأغانى : ٨/١٠٠، والخزانة نقلا عن الأغانى : ٢/١١٧ . وأيضاً : ص ٩٩ – ١٠٠، من هذا الكتاب .

(٤) المؤتلف والمختلف : ٩٨ .

(٥) انظر مقدمة الراوى لأراجيز ديوان الشماخ . ورجز جبار فى أراجيز الديوان فى الأرجوزتين ١٩، ٢٤ . وسيأتى قريباً خبر الجليح بن شميذ واتصال الشماخ به : ص ١٣٨–١٣٩ من هذا الكتاب .

(٦) شرح ديوان كعب بن زهير : ٦٦ .

وقد أكسبه هذا الحسب العريض اعتزازاً وثقة بنفسه ، وأنفة ، فقد كان يشعر به شعوراً قويًّا . استمع إليه منوهاً بمكانة قومه ، مفتخراً بهذا الحسب :

إنى امروٌ من بنى ذُبيان قد علموا أَحْمى شَريعةَ مجدٍ غيرمَوْرود
معى رُدَيْنِىٌّ أقوام أَذودُ به عن حوضهم وفَرِيصى غير مَرْعُود
أنا الجِحَاشِىُّ شمَّاخٌ وليس أَبى بِنِخْسَةٍ لنزيعٍ غير موجود[1]

ويتقدم الشماخ معتزًّا بهذا الحسب ، وتلك المكانة ، خاطباً إلى بنى سليم ، فيقول : « أنا من قد عرفتم ، وأن سوءة من يردونى »[2] .

وقد كان لابد للشماخ أن ينفصل عن هذه الأسرة يوماً ، فيكون له أسرة خاصة — وتلك سنة الحياة — كان لابد له أن يتزوج ، ويستقل فى حياة عائلية خاصة ، قوامها الزوج والولد ، وهنا يحق لنا أن نتساءل : كيف كانت هذه الحياة العائلية ؟ وهل كان الشماخ موفقاً سعيداً فيها ؟ وما صدى تلك الحياة فى شعره ؟ . . . إلخ .

ونحن نحاول أن نجيب عن هذا التساؤل فى الفقرة التالية :

حياته العائلية :

ما روى من الأخبار التى تتصل بهذا الجانب من حياة الشماخ ، من الندرة بحيث لايكفى وحده لإعطاء صورة واضحة ، أو قريبة من الوضوح ، لحياة الشماخ العائلية ، إلا أن مجموع ما روى من ذلك ، وما نجده من صدى لهذه الحياة فى شعره ، قد يمكننا من تجلية بعض ملامحها الهامة .

فى خبره ، أنه تزوج امرأة من بنى سليم بن منصور تدعى « هندا » ، روى البلاذرى قال : « وقالوا : خطب الشماخ إلى بعض بنى سليم ، وكان الشماخ فى حسب ، غير أنه كان أحمر قصيراً ، فقالوا له : والله ما ننكر حسبك ، ولكنك تخطب امرأة ذات كبر ، إن غضبت على زوجها ضربته ، وهى ترى أن الناس خوَلٌ لها ، فقال : أنا من قد عرفتم ، وإن سوءة من يردونى ، فزوجنيها ثم لتضربنى إذا شاءت ،

---

(١) الديوان : القصيدة : ٤ الأبيات : ١٧ — ١٩ .

(٢) أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٠٥ .

وبلغها فقالت لقومها : انكحوا القرد ، وخذوا ماله ، ففعلوا ، وملكها ، وخرجت معه ، ثم ركبت تريد الرجوع إلى أهلها ، فنذر بها ، فأخذ عوداً فضرب ساقها ، فقالت : كسرت ساقى ، وتعالت ثم غفل عنها ، فركبت الجمل وأتت أهلها »(١) .

وفى هذا الخبر دلالة على مدى ثقة الشماخ بنفسه ، واعتداده بمكانته وحسبه ، فهو على الرغم من دمامته ، يتقدم لخطبة هذه المرأة الحسيبة المتكبرة ، التى ترى الناس جميعاً خدماً لها ، ولكن الشماخ — فيما يبدو — كان مسرفاً فى الاعتداد بنفسه ، مما جعله يثق بقدرته على ترويض هذه المرأة ، التى لم يخف عنه ذووها ما فى طبعها وخلقها من شراسة وغرور ، فها هى ذى تخدعه ، فتطلب من قومها أن يقبلوا نكاحه منها ، وأن يأخذوا ما تقدم به من صداق لها ، فى الوقت الذى تبدى فيه نفورها من خلقته ، وتضمر أمراً فى نفسها ؛ ولذا ما إن حانت لها الفرصة ، حتى أظهرت ما كانت تضمر من العزم على النشوز ، فتعللت بأنه أساء إليها ، وتركته راجعة إلى أهلها .

وقد عبر الشماخ فى شعره ، عن موقف هذه المرأة منه ، فى شىء من الدهشة ، والاستنكار ؛ لتصرفها وذلك قوله :

أَلا أَصْبحتْ عِرْسِى من البيت جامحاً ... على غير شىء أَىُّ أَمْرٍ بَدَا لَهَا
على خِيرةٍ كانت أم العرسُ جامح ... وكيف وقد سقْنَا إلى الحى مالَها
ولم تَدْرِ ما خُلقِى فتعلم أَنَّنى ... لدى مُسْتَقَرِّ البيت أُنْعِم بَالها
سَترجعُ نَدْمَى خسَّةَ الحظِّ عندنا ... كما صَرَمتْ منَّا بليل وصالَها
أَعَدْوَ القِبَصىِّ قبل عَيْرٍ وما جرى ... ولم تدرِ ما خُبْرِى ولم أَدْرِ مَالها(٢)

وقد ترك تصرف هذه المرأة فى نفس الشماخ أثراً مؤلماً ، جعل ثقته بنفسه تهتز ، فقد جرحت كبرياءه ، وعرضته لسخرية الناس ، وشماتتهم ، وقد سجل شعره هذه الحالة النفسية ، فهو يقول عقب الأبيات السابقة :

وكنتُ إذا زالتْ رِحالةُ صاحبٍ ... شِمِتُّ به حتى لقيت مثالها(٣)

---

(١) أنساب الأشراف : ١٢ / لوحة ١١٠٥ .

(٢) الديوان : القصيدة : ١٥ .

(٣) القصيدة السابقة : البيت : ٦ .

ويقول لامرأة من بنى سليم ، يقال لها ، « أسماء » ، اعترضت طريقه — وهى لا تعرفه — وسألته : « هل لك علم بأمر العبد اللئيم شماخ ، فإنه بلغنى أنه تزوج هنداً . . »[١] . وفى رواية أخرى أنها قالت له : « ما فعل الخبيث شماخ ، فقال لها : وما تريدين منه ؟ قالت : إنه فعل بصاحبة لنا كيت وكيت ، فتجاهل عليها ، وقال : لا أعلم له خبراً ومضى وتركها . . »[٢] :

تعارضُ أَسماءُ الرِّكابَ عشيةً تُسَائِلُ عن ضِغْنِ النساءِ الطَّوامِح
وماذا عليها إنْ قلوصٌ تمرَّغَتْ بعِكْميْن أَو أَلقتهما بِالصَّحَاصِحِ
فإنك لو أُنكِحْتِ دارت بِك الرَّحَى وأَلْقيْتِ رحْلِى سَمْحةً غَيْرَ طامح[٣]

وهو يرد على ما ادعته ، من أنه أساء إليها وضربها ، بأن من حقه أن يؤدب زوجته إذا نشزت به ، فيقول :

ولم أَكُ مثلَ الكَاهِلِىِّ وعِرْسِه سقتْه على لُوحٍ دماءَ الذَّرَارِحِ
وقالت : شرابٌ باردٌ قد جَدَحْتُه ولم يدرِ ما خاضتْ له بالمَجَادِحِ[٤]

أى أنه حين نشزت به هذه الزوجة أدبها ، حتى لا تفعل به ما فعلته امرأة الكاهلى به ، ثم ينفس عن بعض غضبه بهجاء قومها ، مشيراً إلى السبب الحقيقى — فى رأيه — فى نشوز هذه المرأة ، فيقول مخاطباً أسماء المذكورة آنفاً :

وإنك من قوم تَحِنُّ نساؤُهم إلى الجانب الأَقْصَى حنين المنائح[٥]

ولم تقف قصة هذه الزوجة معه عند هذا الحد ، إذ يقال : إنها استعدت عليه الخليفة عثمان بن عفان ، وتختلف المصادر فى موضوع شكواها ، التى تقدمت بها — يظاهرها قومها — إلى الخليفة ضد الشماخ : فيروى أبو الفرج بسنده عن محمد بن سلام ، عن شعيب بن صخر قال : « كانت عند الشماخ امرأة من بنى سليم ، أحد

(١) أنساب الأشراف : ١٢ / لوحة ١١٠٥ .
(٢) الأغانى : ٨/٩٩ رواية عن القاسم بن معن .
(٣) الديوان : القصيدة : ٣ .
(٤) القصيدة السابقة .
(٥) نفس القصيدة : البيت : ٩ .

بنى حرام بن سماك[١] ، فنازعته وادعته طلاقاً ، وحضر معها قومها ، فاختصموا إلى كثير بن الصلت[٢] ، وكان عثمان أقعده للنظر بين الناس ... فرأى كثير عليهم يميناً ، فالتوى الشماخ باليمين يحرضهم عليها ثم حلف . . »[٣] .

وفى رواية أخرى لأبى الفرج ، نقلا عن كتاب يحيى بن حازم ، بسنده عن القاسم بن معن : « كان الشماخ تزوج امرأة من بنى سليم ، فأساء إليها وضربها ، وكسر يدها ... ثم دخل المدينة فى بعض حوائجه ، فتعلقت به بنو سليم ، يطلبونه بظلامة صاحبتهم ، فأنكر ، فقالوا : احلف ، فجعل يطلب إليهم ، ويغلظ عليهم أمر اليمين وشدتها عليه ، ليرضوا بها منه ، حتى رضوا فحلف لهم . . »[٤] ، ويقال : إن سبب هذه الشكوى أنه هجا قوماً ، فاستحلفوه فحلف ، وتخلص منهم[٥] ويسجل شعره قصة هذه الشكوى ، فيقول :

وجاءت سُلَيْم قَضَّها بقضيضها ... تمسِّح حولى بالبقيع سِبَالَها
يقولون لى : احلفْ فلستُ بحالفٍ ... أُخَادِعُهم عنها لكيْما أنالها
فلو لا كَثيرٌ أنعمَ اللهُ بالَه ... أَزلَّت بأَعلى حُجَّتيْك نعالَها
ففرَّجْتُ همَّ النفس عنى بحلفةٍ ... كما شقَّت الشقراءُ عنها جِلالها
بصاعقةٍ لو صادفتْ رمْلَ عَالجٍ ... ورمْلَ الغَنَا يوماً لهالت رِمالها
فقالوا : أَعدْها نستمعْ كيف قلتها ... فقال كثيرٌ لا نُحِلُّ عِلاَلَها[٦]

وهكذا يمر الشماخ فى حياته الزوجية بهذه التجربة المخفقة ، التى كان لها من الأثر فى نفسه ، ما تردد صداه فى شعره الذى ذكرنا .

---

(١) هو : حرام بن سماك بن عوف بن امرئ القيس بن بهثه بن سليم (انظر نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٢٩٦) .

(٢) ترجمنا له فى الديوان : القصيدة : ١٥ البيت الزائد فى الهامش .

(٣) الأغانى : ٩٩/٨ ، وروى الخبر أيضاً ابن سلام فى طبقات فحول الشعراء : ١١٢ بنفس العبارة تقريباً ، وفيها : « فرأى كثير عليهم يمينا » بدل « عليهم » وهو الصواب .

(٤) الأغانى : ١٠٠/٨ .

(٥) انظر تفصيل هذا الخبر فى الأغانى : ٩٩/٨ — ١٠٠ وقد تناولنا ماروى من أسباب هذه الشكوى بالتفصيل عند كلامنا على البيت : ٧ من القصيدة : ١٥ فى الديوان فليراجع ثمة .

(٦) الديوان : القصيدة : ١٥ .

وقصة هذه الزوجة هى — فيما نعلم — كل ما وعاه التاريخ من حياة الشماخ الزوج ، وندع التاريخ وما أهمل ، ونلتفت إلى شعر الرجل ، فنرى أن هذه الزوجة لم تكن الأولى والأخيرة فى حياته ، كما أنها لم تكن الوحيدة ، التى هجرته مخلفة فى نفسه الحسرة والألم .

فهو يحكى — فى شعره — طرفاً من قصته مع زوجة أخرى فى رجز له ، فيقول :

إنَّ ضباع ابتكرتْ على سَفَرْ
بانتْ وكانتْ حرَّةً ذات خَفَرْ
من العفيفات الجميلات الصُّوَرْ
قد أَصْبَحتْ زوجة شَمَّاخٍ بِشَر
فما أَنالُ اليومَ منها من خَبَرْ (١)

ومن الواضح ، أنه يتحدث فى هذا الرجز عن زوجة أخرى ، غير « هند » السلمية السابقة ، فهذه تدعى ضباع (٢) وهو يصفها بأنها حرة ، ذات خفر ، عفيفة ، جميلة ، بينما وصف السلمية بأنها طامح ، « تحن إلى الجانب الأقصى حنين المنائح » وهذه هجرته مبتكرة ، أما هند ؛ فقد صرمت بليل وصالها ، ولئن كان الشماخ قد علل نشوز الأولى — على الأقل فى رأيه — بطموحها إلى الرجال ، وبما جبل عليه نساء بنى سليم ، من الحنين الدائم إلى الغرباء ، فإنا لنحسبه هنا حائراً ، لا يدرى علة لهجر « ضباع » إياه ، وهى العفيفة ذات الخفر .

ونحاول نحن ، أن نبحث عن علة هذا الإخفاق المتكرر ، فى حياته الزوجية ، وبالطبع لم يكن ذلك راجعاً إلى ضعة فى حسبه ، أو لسقوط فى مكانته بين قومه ؛ فقد علمنا آنفاً ، أن آل ضرار كانوا فى حسب من قومهم ، وقد أقر أصهاره من بنى سليم بهذا الحسب ، ولم ينكروه عليه كما تقدم ، كما أن هذه العلة لا ترجع إلى سوء الاختيار وحده ، فهو وإن كان قد أساء الاختيار ، بالنسبة لزوجته السلمية

---

(١) ملحق الديوان : القطعة : ١٩ .

(٢) قد يكون اسمها « ضباعة » فرخمه ، كما رخم اسم زوجة أخرى له ، تدعى « عائشة » فقال : « أعائش » .. كما سيأتى بعد قليل .

التى عرفت بشراستها وغرورها ، مما يجعل إخفاق استمرار الحياة الزوجية معها متوقعاً ، فإننا لا نرى سوء الاختيار ، سبباً محتملا بالنسبة لهذه الزوجة الثانية (ضباع) ، فهى كما وصفها ، حرة عفيفة ، ذات خفر ، وزوجة هذه صفاتها ، لا يمكن أن يوصف اختيارها زوجة بالسوء .

فهل كان ذلك لشىء فى خلق الشماخ ، من العيوب التى تضيق بها الزوجة عادة ، فتفضل الإخفاق فى الزواج ، على الاستمرار فى كنف مثل هذا الزوج ؟

إن الشماخ ينفى عن نفسه هذه التهمة . فهو يقول فى شأن زوجته السلمية :

أَلا أَصبحتْ عِرْسِى من البيت جامحاً ... على غير شىءٍ أَى أَمر بدا لِها

على خِيرَةٍ كانت ، أَم العرسُ جامح ... وكيف وقد سقْنا إلى الحىِّ مالَها

ولم تدر ما خلقى فتعلم أَننى ... لدى مستقرِّ البيت أُنْعِمُ بالَها

أما نحن ، فنكاد نميل ، إلى أن خِلْقته قد تكون هى علة شقائه ، فى حياته الزوجية ، فقد ذكرنا آنفاً ، أنه كان أحمر قصيراً ، ونضيف هنا أنه كان مُمَتَّعاً بإحدى عينيه[1] ، وهذا لا يعنى أن ما ذكرناه هو السبب الوحيد المحتمل ، فقد نستطيع أن نقرنه بسبب آخر ، لعله يرجع إلى أن الشماخ كان يشدد على نفسه ، وعلى أهل بيته فى المعيشة ، ويشق عليها وعليهم ، فى سبيل إصلاح ماله ورعايته ، والحفاظ عليه ، وقد يشهد لذلك بعض شعره الذى يشير فيه إلى زوجة أخرى تدعى « عائشة »[2] يبدو أنها كانت تلومه على هذا التشدد فى المعيشة ، وتنكر عليه ملازمته لإبله ، والتعزب فيها ، إلى حد أن أصبح جسمه نحيلا ، كأنه أصيب بالحمى ، فيرد عليها قائلا :

أَعائشُ ما لأَهْلك لا أَراهُم ... يُضِيعُون الهجانَ مع المُضيع

وكيفَ يَضيع صاحبُ مُدْفَآتٍ ... على أَثْبَاجِهنَّ من الصَّقيع

---

(١) انظر : شرح أدب الكاتب : ٣٥٥ .

(٢) لم يصرح الشماخ فى شعره بأن عائشة كانت زوجة له ، إلا أن بعض القدماء قد استظهر أنها زوجته ، كابن فارس فى الصاحبى (١٣٩) ونحن أيضا نميل إلى هذا الرأى ، الذى يوحى به شعره .

إلى أن يقول :

لمالُ المرءِ يُصلحه فَيُغْنى مَفَاقِرَهُ أَعفُّ من القُنُوع

. . . . . .

أَلا تلكَ ابنةُ الأَمَوىّ قالت أَراك اليوم جسمُك كالرَّجيع

كأَن نَطَاةَ خيْبَر زوّدته بَكُورَ الوِرْدِ ريِّثةِ القُلُوع... إلخ [١]

وقد يضاف إلى هذين السببين سبب أو أسباب أخرى، علمها فى ضمير الغيب .

وهكذا نلمس فى حياة زوجة ثالثة له ، شيئاً من الضيق بحياتها معه ، أهون ما يدل عليه، أن حياته مع هذه الزوجة كانت تفتقد السعادة، التى يشعر بها الزوج من خلال رضا زوجته عنه ، وشعورها بالسعادة فى كنفه ، والظاهر أن مصير هذه الزوجة الثالثة للشماخ ، لم يختلف عن مصير سابقتها معه ، وأنها هجرته هى الأخرى ، فقد يفهم هذا من قوله — بعد الأبيات السابقة :

أَعائش هل يقرب بين وصلى ووصلك مِرجَم خاظى البضيع [٢]

بقى أن نتساءل : هل يعنى ما تقدم أن الشماخ لم يوفق إلى حياة زوجية مستقرة ، يسودها الوئام ، ويجمّلها ، ويوثّق عراها الحب والولد ؟

الحق ، أننا حاولنا أن نستنطق أخباره وأشعاره ، علنا نجد جواباً لهذا التساؤل ، فلم نظفر منهما إلا بالصمت ، أو ما يشبه الصمت .

أما شعره ، ففيه أنه كان له ابنة لم يذكر لنا اسمها :

تقول ابنتى أَصبحتَ شيخاً ومن أَكن له لِدَةٌ يُصْبحْ من الشَّيب أَوْجَرا [٣]

وتقدم أنه كان يكنى « أبا سعدة »، وقد قلنا هناك : إنه ربما كانت « سعدة » هذه هى ابنته ، التى يشير إليها فى هذا البيت ، بيد أن ابن أبى داود الأصفهانى ، يروى شعراً لمن تدعى « رامة بنت الشماخ »[٤] فهل رامة الشاعرة هذه هى ابنة

(١) الديوان : القصيدة : ١٠ .

(٢) الديوان : القصيدة : ١٠ البيت : ١٣ .

(٣) الديوان : القصيدة : ٥ البيت : ٦ .

(٤) الزهرة (النصف الأول) : ٢٢٨ وكان ابن أبى داود (أبو بكر محمد بن سليمان الأصفهانى فقيها ظاهريا توفى سنة ٢٦٩ هـ)(انظر : مروج الذهب للمسعودى طبعة القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ص٥٣—٥٤)

الشماخ بن ضرار ، أم ابنة شماخ آخر[١] ؟ الذى لا حظناه خلال جولتنا فى المصادر المختلفة ، أن القدامى ، كانوا يطلقون « الشماخ » ، ويريدون به الشماخ بن ضرار لشهرته ، فإذا قصدوا شماخاً آخر ، قيدوه بنسب[٢] أو بنسبه .

ومع ذلك ، فلا يمكننا أن نقطع بأن « رامة » هذه ، هى ابنة الشماخ بن ضرار ، فابن دريد يروى هو الآخر شعراً آخر ، لمن تدعى « رامة بنت حصين بن قيس بن منقذ بن الطماح »[٣] ومن الجائز أن تكون « رامة » ، هذه هى نفس « رامة » الشاعرة ، التى وردت فى كتاب ابن أبى داود الأصفهانى ، وأن يكون الأصل فيه « وقالت رامة بنت الطماح » على سبيل الاختصار ، ثم حرفت كلمة (الطماح) إلى : (الشماخ) ، على أية حال ، فالثابت من شعر الشماخ أن له ابنة ، وليكن اسمها ما يكون .

وقد خلا شعره وخبره ، مما يدل على أن له ولداً ذكراً ، إلا ما جاء فى أراجيز الديوان ، فقد حكى الراوى : أنه كان للشماخ امرأة ذات صبى[٤] ، وهى التى عرض بها الجليح بن شميذ ، ودعاها « سليمى »[٥] .

وما ذكره هذا الراوى ، لا يقطع بأن الشماخ كان له ولد ذكر ، فكلمة « صبى » تطلق فى معاجم اللغة على من لم يفطم بعد[٦] ، ويقول الزبيدى فى المستدرك : « يقال للجارية صبية وصبى »[٧] ومع ذلك ، فالراجح أن المراد بالصبى فى حكاية الراوى : الولد الذكر ؛ لقول الجليح :

أُمَّ صبىٍّ قد حَبَا أَوْدَارِ ج[٨]

---

(١) ذكر الآمدى فى المؤتلف والمختلف (١٣٨) عدة شعراء ، كل منهم يدعى « الشماخ » ، وفى فتوح البلدان (٢٩٣) من يدعى : « الشماخ بن شجاع » وفى : الطبرى : ٤/٦٣ من يدعى « الشماخ العكلى » وقد ترجم لهذا الأخير ابن حزم فى جمهرته : ١٨٨ وفيها أيضا : ١٧٧ ترجمة لمن يدعى « الشماخ بن عامر بن عوف . . » وغيرهم .

(٢) انظر مثلا : الحيوان : ٧/٨٥ ومراجع الهامش السابق .

(٣) المجتنى : ٨٤ .

(٤) انظر : مقدمة الأرجوزة : ٢١ من الديوان .

(٥) انظر : الأرجوزة : ٢٠ من الديوان : البيتين : ١ ، ٢٠ .

(٦) انظر : القاموس (ص ب و) .

(٧) التاج (صبا) .

(٨) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٠ البيت ٢٠ .

ونرجع إلى الكلام على كنيته مرة أخرى ، فنجد أنه كان يكنى أيضاً « أباسعد » وقيل : « أبا سعيد »[١] ، فلعل « سعدا » أو « سعيداً » هذا ، هو اسم هذا الصبي ، وبه كنى أيضاً ، ومن هنا تعددت كنيته .

ولا نحب أن ندخل فى افتراضات أخرى ، ليس لدينا ما يسندها ، والذى نريد أن نخلص إليه ، هو أن الشماخ لم يحرم نعمة الولد .

وبعد : فمما تقدم ، يمكننا القول : بأن الشماخ لم يوفق — فى بعض تجاربه على الأقل — فى حياته الزوجية ، أعنى أنه — باعتباره زوجاً — قد ذاق مرارة الإخفاق مع أكثر من زوجة ، فهل حالفه الحظ فى علاقاته العاطفية الأخرى ، التى لم ترتبط برباط الزوجية ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه فى الفقرة التالية :

قصة الحب فى حياة الشماخ :

استظهرنا عند الكلام على صبا الشماخ وشبابه ، أن موت أبيه قد دفعه — وهو صبى — إلى لون من الحياة ، فيه الكثير من الجد ، وزعمنا هناك أن أثر هذه الحياة الجادة المبكرة ، قد انسحب على حياته كلها ، وحاولنا أن ندعم هذا الزعم ، فضربنا المثل بظاهرتين ، استنبطناهما من شعره[٢] .

إلا أنه مهما كان أثر هذا الجد فى حياة الشماخ ، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها ، وهى أن الشماخ كان يحمل بين جنبيه قلب فنان ، يهفو — فيما يهفو — إلى الحب ، ويضم بين جوانحه نفساً شاعرة حساسة ، وإذن : فمن الطبيعى ، أن يكون لهذا القلب نبضات فى دنيا الغرام ، وأن يقوده هذا القلب ، وتلك النفس إلى التودد إلى الحبيب ، والتغزل فى محاسنه ، ومحاولة نيل الحظوة عنده . وقد حفظ لنا خبره وشعره طرفاً من هذا الجانب من حياته .

روى أبو الفرج عن ابن الكلبى قال : « كان الشماخ يهوى امرأة من قومه ، يقال

---

(١) راجع : ص : ٧٦ من هذا الكتاب .

(٢) راجع : ص : ٨١ — ٨٢ من هذا الكتاب .

لها : كلبة[١] بنت جوال أخت جبل بن جوال الشاعر . . . وكان يتحدث إليها ، ويقول فيها الشعر[٢] فخطبها فأجابته ، وهمت أن تتزوجه ، ثم خرج إلى سفر له فتزوجها أخوه جزء بن ضرار ، فآلى الشماخ ألا يكلمه أبداً . . . »[٣].

وهذا الخبر ، هو كل ما انتهى إلينا من أخبار حبه . إلا أننا نجد فى شعره أنه تودد إلى عدة نساء ، وتغزل فيهن ، وهو فى بعض هذا الغزل ، لا يصرح بشىء من اسم أو كنية لمن يتغزل فيها ، كقوله فى مطلع القصيدة (٤ — الديوان) :

طال الثَّواءُ على رسم بيَمْئُود ... أَوْدَى وكلُّ خليل مَرَّةً مُودِى
دارُ الفتاة التى كنَّا نقول لها ... يا ظبيةً عُطُلاً حُسَّانةَ الجيدِ
كأَنها وابنُ أَيَّامٍ تُرَبِّبُه ... من قُرَّةِ العين مُجْتَابا دَيَا بُود
تُدنِى الحمامةَ منها وهْىَ لاهيةٌ ... من يانع المَرْدِ قِنْوانُ العناقِيدِ

وقوله فى مطلع القصيدة (١١ — من الديوان) :

نظرتُ وسهْبٌ من بُوَانة بيننا ... وأَفْيَح من روْضِ الرَّبابِ عميقُ
إلى ظُعُنٍ هاجتْ علىَّ صبابةً ... لهُنَّ بأَعْلى القُرْنَتَيْن حريق
فقلتُ : خليلى انظرا اليوم نظرةً ... لعَهْدِ الصِّبَا إذْ كنتُ لست أَفيق
إلى بقرٍ فيهنَّ للعيْن منظرٌ ... وملهًى لمن يلهو بهن أَنِيقُ
رعيْن النَّدى حتى إذا وَقَدَ الحصَى ... ولم يبق من نَوْءِ السِّماك بُروقُ
تصدَّع فيه الحىُّ وانشقَّت العصا ... كذاك النوى بين الخليط شقُوق
ولما رأَيتُ الدارَ قَفْرًا تَبادرتْ ... دموعٌ لِلَوْم العاذِلات سَبُوق...إلخ

---

(١) انظر : هامش ٢ : ص : ٩٠ من هذا الكتاب ، وكلبة هذه من بنى جحاش (وهم رهط الشماخ الأدنون) .

(٢) لم يرد ذكر لها فى شعره بهذا الاسم ، إلا فى بيت واحد فى ملحق الديوان : (٣٨) ، وقد تكون هى المعنية بغزله الذى لم يصرح فيه باسم المتغزل فيها ، أو هى المرادة بأحد الأسماء التى ذكرها فى شعره ، أو ربما ضاع شعره فيها ، إلا أن كل ذلك يحتاج إلى القرينة القاطعة وأنى ذلك .

(٣) الأغانى : ٨/١٠٠ .

وفى غير هذين الموضعين ، نجده يذكر (ليلى ، والميلاء ، وسليمى ، وأسماء ، والرباب ، وأروى ، وسعاد ، وابنة الراقى ، وابنة الضَّمْرى).

وهذه الأسماء ، قد لا تكون كلها أو بعضها أسماء حقيقية ، لمن تغزل فيهن الشاعر ، فقد يكون منها ما كنى به عن واحدة بعينها ، لم يشأ أن يصرح باسمها الحقيقى ، دفعاً للقالة ، وتعمية على الوشاة .

كما أنه من الجائز ، أن يكون بعضها من قبيل الأسماء ، التى تخف على ألسنة الشعراء ، وتحلو فى أفواههم ، فهم كثيراً مايأتون بها زوراً ، نحو : ليلى ، وهند ، وسلمى ، وأروى ، والرباب . . . وغيرهن ، أو من قبيل إقامة الوزن ، وتحلية النسيب[١] ، ولعل أوضح مثال لذلك ، قوله فى مطلع القصيدة (١٤ — الديوان) :

بانت سعادُ فنومُ العين مَمْلُولُ وكان من قِصَرٍ من عهدها طول

فهذا المطلع مشهور ، قد تداوله كثير من الشعراء[٢] ، وأغلب الظن ، أن اسم سعاد هنا ، ليس هو بالاسم الحقيقى للمرأة التى يقصدها بحديثه ، وإنما هو اسم استجلب لخفته ، وجريان العادة بذكره ، فى مثل هذا المطلع ، عند غيره من الشعراء ؛ ولذا لم نجده فى غير هذا المطلع من شعره .

والذى يظهر لنا من استقراء شعره ، أن هناك امرأتين ، أو بتعبير أدق : اسمين لامرأتين ، كان لهما حظ أوفر من شعره ، وهما : ليلى ، والميلاء .

أما ليلى ، فقد ذكرها مصرحاً باسمها ، فى أربع قصائد من شعره (وهى القصائد : ٢ ، ٥ ، ٦ ، ١٧ من الديوان) ونحن لا نعرف عنها إلا ما ذكره هو : من أنها كنانية[٣] ، وأنها « وسيطة قوم صالحين » وهى منعمة مصونة مترفة[٤] . وهو يحكى حاله معها ، فيذكر أنهما كانا يلتقيان ، إلا أن هذا اللقاء ، كان قصيراً دائماً ، خوفاً من الرقباء وفى ذلك يقول :

---

(١) انظر العمدة : ٢/٩٨ .

(٢) انظر شرح البيت فى الديوان .

(٣) انظر القصيدة : ٢ البيت : ٥ وانظر شرحه فى الهامش — الديوان .

(٤) الديوان : القصيدة السابقة : البيتين : ٦ ، ٧ .

وكنتُ إذا لاقيتُها كان سِرُّنا وما بيننا مثلَ الشِّواءِ المُلَهْوَجِ [١]

كما أن الحب بينهما لم يتوج بالزواج ، يدل على ذلك قوله :

يُقِرُّ بعيني أن أُنَبَّأَ أنها وإنْ لمْ أَنَلْها أَيِّمٌ لم تَزَوَّجِ [٢]

ويظهر أنه لم ينعم بوصلها طويلا ؛ إذ لم تلبث أن ظعنت ، وشطت ديارها [٣] ، وهو يذكر أن هذا الفراق ، قد شق عليه وعليها [٤] .

ويشهد شعره بمدى حبه لها ، فقد ظل هذا الحب قويًّا لائطاً بقلبه ، على الرغم من يأسه من وصلها بعد ظعنها ، ذلك اليأس الذى يصوره قوله :

وكيف تلاقيها وقد حال دونها بنو الهُون أَوجَسْرٌ ورهْطُ ابن حُنْدُجِ [٥]

فهو يذكر منزلا لها ، درس رسمه ، وأقفر بعد رحيلها عنه ، فيهيج شوقه إليها ، وتمتلئ عينه بالدموع ، فيسارع إلى نهنهتها ، خشية أن تتحدر ، فيشمت به الشامتون ، ويبعث إليها بالسلام مضاعفاً ، عديد الحصى [٦] .

ويعرج على دمنتين باليتين ، فى ربعين قد عفا طلاهما ، ولم يبق فيهما بعد رحيل أهلهما ، إلا بعض الآثار : كالنؤى والأثافى وبقايا الرماد فى الموقد ، فيذكرانه : بـ « ليلى » وبأخرى تدعى « الرباب » [٧] وكانتا تقيمان بهذين الربعين ، ثم مضتا ، ولم تبق إلا هذه الآثار ، فتفيض دموعه فى ردائه غزاراً ، كأنها مياه تتدفق من قربة بالية [٨] ، ويبرح به الوجد ، حين يرى ضوء نارها ، يتلألأ من بعيد فيبيت ليلته مسلوب العقل ، طائر اللب ، كأنه عاقر « خمراً معتقة حُميّاها تدور » ويتمنى لو واصلت به ناقته السير ليلا ونهاراً ، حتى يصل إليها [٩] .

---

(١) القصيدة السابقة : البيت : ١٥ .
(٢) القصيدة السابقة : البيت : ١٣ من الديوان .
(٣) انظر القصيدة السابقة الأبيات : ١ ، ٢ ، ٢٢ من الديوان .
(٤) انظر القصيدة السابقة : البيتين : ١٦ ، ٢٠ من الديوان .
(٥) نفس القصيدة : البيت : ٢١ — الديوان .
(٦) انظر : الديوان : القصيدة : ٥ الأبيات : ١— ٥ .
(٧) لم يرد ذكر الرباب إلا فى هذا الموضع .
(٨) انظر : الديوان : القصيدة : ١٧ الأبيات : ١ — ٥ .
(٩) انظر الديوان : القصيدة : ٦ الأبيات : ١ — ٩ .

ولكن هل كانت ليلى هذه ، التى غلبت على قلبه زماناً ، وألهمته أكثر وأصدق ما قال فى هذا الضرب من شعره ، هل كانت تبادله حبًّا بحب ؟

الحق ، أن شعره فيها يصور مدى حبه لها ، أقوى من تصويره لمدى حبها له ، فلم يتضمن إلا بعض الإشارات ، التى قد تصورها متجاوبة معه عاطفيًّا ، إلى حد ما.

فهى تخف للقائه أحياناً على حذر ، خوفاً من أعين الرقباء ، فيتبادلان حديث الهوى على عجل :

وكنتُ إذا لاقَيْتُها كان سِرُّنا وما بيننا مثلَ الشِّواء الملهوج

وهى غداة البين ، يكاد يكشف طرفها ، عما تكنه له من الحب ، وعما تحس به من لوعة الفراق :

وكادتْ غداةَ البَيْن ينطقُ طَرْفُها بما تحت مَكْنُونٍ من الصدر مُشْرَج [١]

وهو يحن إلى ليالى وصلها ، التى صفا فيها ودهما ، حيث كانت عهود الحب وثيقة بينهما :

لَيَالِيَ لَيْلَى لم يُشَبْ عذبُ مائِها بملحٍ وحَبْلَانا متينٌ قُواهما [٢]

ومع ذلك ، فقد يشير بعض قوله ، إلى أنها قد ظعنت وفارقته مختارة ، دون أن يكون هناك من داع لهذا الفراق ، إلا هوى نفسها ، وذلك قوله :

ألا أَدْلَجَتْ ليْلاك من غير مُدلج هَوَى نفسها إذْ أَدْلجت لم تُعرِّج [٣]

وأما « الميلاء » ، فقد صرح بعلاقته بها ، فى قصيدتين من شعره (وهما القصيدتان : ٧ ، ٩ من الديوان) وهى أيضاً كنانية [٤] ، وقد يفهم من بعض شعره فيها ، أنها تزوجت رجلا من تغلب ، فهو يقول :

تَعُوذُ بِحَبْل التَّغْلبيّ ولو دعتْ عليَّ بن مسعودٍ لعَزَّ نَصِيرُها

---

(١) الديوان : القصيدة : ٢ البيت : ١٦ .

(٢) الديوان : القصيدة : ١٧ البيت : ٦ .

(٣) الديوان : القصيدة : ٢ البيت : ١٨ .

(٤) انظر القصيدة : ٧ من الديوان ، البيت : ١٣ .

فإن تلكُ قد شطَّت وشطَّ مزارُها وجَذَّم حَبْلَ الوصل منها أَميرُها
فما وصلُها إلا على ذاتِ مِرَّةٍ .....إلخ[١]

كما يفهم منه أيضاً ، أن علاقته بها ، لم تبلغ من القوة ، ما بلغته علاقته بتلك التى أسماها « ليلى » ، فهو يتحدث فى القصيدة (٧) عن منازلها ، التى ارتحلت عنها ، والتى عفت أطلالها إلى أن يقول :

فإن حلتْ الميْلَاءُ عُسْفَان أَو دنتْ لِحَرَّةِ ليْلى أَو لِبَدْرٍ مصيرها
لِيبْك على الميْلاءِ من كان باكياً إذا خرجَتْ من رَحرَحَانَ خُدورُها

ويقول :

أَرتْنا حياضَ الموتِ ثُمَّت قلَّبتْ لنا مُقْلةً كحْلاءَ ظلَّتُ تُديرها[٢]

ويتبع ذلك بالتغزل فى محاسنها[٣] .

ويبدو أنها كانت تضن عليه بوصلها ، يظهر ذلك من قوله :

وماذا على الميْلاءِ لو بذلتْ لنـــا من الودِّ ما يَخْفَى ومالا يَضِيرُها[٤]

أما فى القصيدة (٩)، فلم يزد على أن ذكر منازلها ، التى عفت آثارها ، ومعالم طرقها ، بعد أن ارتحلت عنها[٥] .

أما الباقيات ، فقد أشار إلى بعضهن إشارة عابرة ، لا تبين عن حقيقتهن ، ولا عن طبيعة علاقته بهن ، وهن : سعاد[٦] ، والرباب[٧] ، وسليمى[٨] ، وابنة الضمرى[٩] .

---

(١) الديوان : القصيدة : ٧ الأبيات : ١٥ — ١٧ ، وانظر ترجمة « على بن مسعود » فى شرح هذا البيت فى الديوان .
(٢) الديوان : القصيدة : ٧ الأبيات : ٤ — ٧ .
(٣) الديوان : القصيدة : ٧ الأبيات : ٨ — ١٢ ثم البيت : ١٤ .
(٤) الديوان : القصيدة : ٧ البيت : ٦ .
(٥) انظر : الديوان : القصيدة : ٩ الأبيات : ١ — ٣ .
(٦) انظر الديوان القصيدة : ١٤ الأبيات : ١ — ٣ .
(٧) انظر القصيدة : ١٧ البيت : ٤ — الديوان .
(٨) انظر : القصيدة ٨ البيتين : ١، ٢ — الديوان .
(٩) انظر : ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ البيتين : ١ ، ٢ .

بقيت أسماء ، وأروى ، وابنة الراقى : وشعره فيهن — على قلته — يلقى بصيصاً من الضوء ، على علاقته بهن .

أما « أسماء » ، فلا نعرف عن حقيقتها شيئاً ، أما عن علاقته بها ، فهو يذكر أن حبها عالق بقلبه ، قد خبل فؤاده ، وعلى الرغم من أنه يدعى ذلك ، ويزعم أنها سلبته معقوله ، فإنه يتهددها بأن فى إمكانه أن يسلوها كما سلته ، وأن يصبر على هجرها ، حتى ينساها نسياناً تامًّا ، وذلك قوله :

يا أَسمُ قد خَبَلَ الفؤادَ مُروِّحٌ   من سِرِّ حُبِّكِ مُعْلِقٌ إِعْلاقا
فَسَلَبْتِه مَعْقُولَه أَمْ لَمْ ترىْ   قلباً سلا بعد الهوى فأفاقا ؟
عزم التَّجلّدَ عن حبيب إِذْ سلا   عنه فأَصبح ما يتوق متاقا (١)

وأحسب ، أن غير ذلك شأن المحب ، الصادق الحب !!

أما هى ، فيبدو أنها لم تخلص له الود ، وقد يشير إلى ذلك قوله — قبل الأبيات السابقة :

صَدَعَ الظعائنُ قلبَه المشتاقا   بحزيز رَامَةَ إِذْ أَردْن فِراقَا
مَنَّيْنَــه فكذبْن إِذْ مَنَّيْنَه   تلكَ العهودَ وخُنَّه الميثاقا (٢)

أما « ابنة الراقى » ، فهو ينكر على نفسه أنه ما زال يهيجه ذكرها ، وأنه لا يفتأ يذكرها ، مع أنها لم توف له بوعد . . فهو يقول :

ماذا يَهِيجك من ذكرِ ابنَة الرَّاقى   إذ لا تزالُ على هَمٍّ وإشْفَاق
. . . .
ماذا يَهِيُجكَ لا تَسْلى تَذَكُّرَها   ولا تَجُود بمَوْعُودٍ لمشتاق
هل تُسْلِيَنَّكَ عنها اليومَ إذ شَحَطَتْ   عَيْرانَة ذاتُ إرقالٍ وإعناق (٣)

---

(١) الديوان : القصيدة : ١٣ الأبيات : ٤ — ٦ .

(٢) القصيدة السابقة : البيتين : ١ ، ٢ .

(٣) الديوان : ١٢ الأبيات : ١— ٤ .

كذلك كان حظه مع « أروى » التى يقول فيها :

كِلاَ يَوْمَىْ طُوَالَةَ وصْلُ أَرْوَى ظَنُونٌ آن مُطَّرح الظَّنُون
وما أَرْوَى – وإنْ كَرُمَتْ علينا – بـأَدْنَى من مُوَقَّفَةٍ حَرُون [١]

وكان لقيها فى هذا الموضع مرتين فى يومين ، فلم ير منها ما يحب . فقال لنفسه : يجدر بى ألا أطمح فى وصلها ؛ فهو غير موثوق به . . .

ومن هذا العرض لقصة الحب فى حياة الشماخ ، نرى أنه فى حياته الغرامية ، قد بلا الحب ، واكتوى بناره ، وأنه قد عرف غير واحدة ، ويظهر أن علاقته ببعضهن ، لم تكن تتجاوز منزلة الحب الطارئ ، أو الإعجاب العابر ، بيد أن واحدة من بينهن ، هى التى بلغت علاقته بها ، إلى حد ما يعرف بالغرام أو العشق ، وهى التى دعاها : « ليلى » .

بقى ، أن نجيب عن سؤال سبق أن طرحناه ، وقلنا فيه : هل حالف الحظ الشماخ فى علاقاته العاطفية الأخرى ، التى لم ترتبط برباط الزوجية ؟

على ضوء ما سبق ، نحسب أننا لا نبعد عن الصواب ، إذا قررنا أن الشماخ لم يكن فى هذه العلاقات أسعد حظًّا منه فى حياته الزوجية ، والأمثلة على ذلك ظاهرة فيما سقناه من شعر آنفاً .

وأوضح هذه الأمثلة ، ما جاء فى الخبر ، الذى رواه أبو الفرج عن ابن الكلبى ، وسقناه فى صدر هذا الحديث . فإنه لمن المؤلم حقًّا ، أن تفجعه تلك المرأة فى حبه ، بعد أن أوهمته بأنها تبادله الود ، وبعد أن سمحت له بأن يسكب فى أذنيها أحاديث الهوى ، وأن يتغزل فيها ، بل لقد أجابته حين خطبها ، وهمت أن تتزوجه ، لولا أن دعاه داع إلى السفر ، وإذْ عاد ، وجدها قد تنكرت لحبه ، وخانت عهوده ، وتزوجت من أخيه ، ويشعر الشماخ بهذه الصفعة القوية ، فيحقد عليها وعلى أخيه ويهجوه [٢] ، ويقسم ألا يكلمه ما بقيت فيه حياة ، فيموتا متهاجرين .

---

(١) الديوان : القصيدة : ١٨ البيتين : ١ ، ٢ .

(٢) لم يبق لنا من هجائه لأخيه إلا بيت واحد (انظر ملحق الديوان : ٣٨) .

أسفاره :

شعر الشماخ الذى بين أيدينا ، يصوره جواباً للصحراء ، كثير الأسفار ، دائم الرحلة، فالناظر فى هذا الشعر ، لا يكاد يراه — فى معظم قصائده — إلا راكباً ناقته ، ضارباً فى الفيافى والقفار .

وهو فى معظم رحلاته ، يبدو وكأنه لا هم له إلا التسلى عن هموم نفسه ، بركوب ناقته ، والإدلال بخبرته ، ومعرفته بدروب الصحراء ومسالكها ، وجلده على تحمل مشاق السفر ، وأهوال الرحلة ، والإشادة بناقته وسرعتها ، وقوة احتمالها ، وصبرها على كثرة السرى ، وبعد المشقة . ومن ذلك قوله :

هل تسلينك عنها اليوم إذشَحَطَتْ ... عَيْرَانَةٌ ذاتُ إرقالٍ وإعْنَاقِ(١)

وقوله :

سلِّ الهمومَ التى باتتْ مؤرقة ... بجسْرَةٍ كَعَلَاةِ القيْن شِمْلالِ(٢)

وقوله :

ولستُ إذا الهمومُ تحضَّرتْنى ... بأخضعَ فى الحوادث مستكين

فسلِّ الهمَّ عنك بذات لَوْثٍ ... عُذَافِرةٍ كمِطْرقة القُيُون(٣)

ويقول :

وداوِيَّةٍ قفرٍ تَمَشَّى نِعَاجُها ... كمشْيِ النَّصَارى فى خِفَافِ اليَرنْدج

قطعتُ إلى مَعْروفها مُنْكَراتِها ... إذا خَبَّ آلُ الأمعز المتوهِّج(٤)

ويقول :

ودَوِّيةٍ تَيْهَاءَ قفرٍ مَرَادُها ... مَرُوت يَكِلُّ العيسَ فيها ارتكاضُها

إذا ما حَرَابِىُّ الظهيرة لم تقلْ ... نَسَأْتُ بها صَعْراءَ طال امْتعَاضُها

(١) القصيدة : ١٢ البيت : ٤ .
(٢) ملحق الديوان : القطعة : ٤٠ البيت ١ .
(٣) الديوان : القصيدة : ١٨ البيتين : ٦ ، ٧ .
(٤) الديوان : القصيدة : ٢ البيتين : ٣٠ — ٣١ .

ذعرتُ بها سِرْبَ القَطَا وهْو هَاجِدٌ وعَيْنُ الفلاة لم تُبَعَّثْ رياضها (١)

وقوله من رجز له ، يصف نفسه بما ذكرنا :

أَرْوَعُ خَرَّاجٌ من الداوِيَّات
يسْرى إذا نام بنو السَّرِيَّاتِ
يبيتُ بين شُعَب الحارِيَّات
جوَّابُ ليلٍ مِنْجَرُ العَشِيَّات (٢)

وهو يشيد بناقته قائلا :

جُمَالِيَّةٌ لو يُجعَلُ السيفُ غَرْضَها ـ على حَدِّه ـ لاستكبرتْ أن تَضَوَّرا
كأَن ذراعيْها ذِرَاعَا مُدِلَّةٍ بُعَيْد السِّباب حاولتْ أن تَعَذَّرا
كأَنَّ ابنَ آوى موثقٌ تحت غَرْضِها إذا هُوَ لم يَكْلِمْ بِنَابيْه ظَفَّرا

إلى أن يقول :

سَرَتْ من أعالى رَحْرَحَان وأصبحتْ بفَيْد وباقى ليلها ما تحسَّرا
إذا قطعتْ قُفًّا كُمَيْتاً بَدَا لَهَا سَمَاوةُ قُفٍّ بين وَرْدٍ وأشقرا
وراحتْ رَوَاحاً من زَرُودَ فنازعتْ زُبَالةَ جِلباباً من الليل أخضرا
فأَضْحتْ بصحراء البُسَيْطَةِ عاصفاً تُولِّى الحصى سُمْرَ العُجايات مُجْمَرا (٣)

ويقول من قصيدة أخرى :

جُمالِيَّةٌ فى عِطْفها صَيْعَرِيَّةٌ إذا البازلُ الوَجْناءُ أُرْدِف كُورُها
عَلَنْداةُ أَسْفارٍ إذا نالها الوَنَى وماجتْ بها أَنْسَاعُها وضُفُورها
يردُّ أَنابيبُ الجرانِ بُغامَها كما ارتدَّ فى قوْس السَّراءِ زفيرها

---

(١) الديوان : القصيدة : ٩ الأبيات ٤ ، ٥ ، ٧ .
(٢) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٢ الأبيات : ١٥ — ١٨ .
(٣) الديوان القصيدة : ٥ الأبيات : ١٣ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٨ — ٣٠ .

لجُوجٌ إذا ما الآل آض كأنه أعاصيرُ زَرَّاع بنَخْل يُثِيرُها [١]

ويقول :

حرفٌ صموتُ السُّرى إلا تلفُّتها بالليل فى سَأَدٍ منها وإطراق

جُلْذِيَّة بقُتُود الرَّحْل ناجية إذا النجومُ تدلَّتْ عند تِخْفَاق [٢]

وقوله من رجز له :

كأنَّها وقد براها الإخْماس

ودَلَجُ الليل وهادٍ قيَّاس

ومَرَج الضَّفْرُ وماج الأَحْلاَس

شرائجُ النَّبْع براها القوّاس [٣]

وهو من أجل ذلك ، معجب بها أيما إعجاب :

فكلٌّ بعيرٍ أحسن الناسُ نَعْتَه وآخر لم يُنْعَتْ فِدَاءٌ لِضمْزَرَا [٤]

وغير ذلك كثير فى شعره .

وهو لا يفصح لنا عن مقصد محدد لهذه الأسفار ، إلا فى ثلاث قصائد ، حيث قصد فى رحلتين منها ممدوحه [٥] « عرابة بن أوس » بالمدينة ، وقصد فى رحلة ثالثة [٦] « يزيد بن مربع الأنصارى » بناحية الشام [٧] وتدل الأماكن التى ذكرها مارًّا بها فى بعض رحلاته ، على أنه قصد ناحية العراق [٨] أيضاً .

وفى أخباره ، أنه شهد موقعة « القادسية » مع الحطيئة وغيره ، من شعراء المسلمين

---

(١) الديوان : القصيدة : ٧ الأبيات : ١٨ — ٢١ .

(٢) الديوان : القصيدة : ١٢ البيتين : ٥ ، ٦ .

(٣) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٥ الأبيات : ١ — ٤ .

(٤) الديوان : القصيدة: ٥ البيت : ٤٥ .

(٥) انظر : الديوان : القصيدتين : ١٢ ، ١٨ .

(٦) الديوان : القصيدة : ١٧ .

(٧) انظر : شرح البيتين : ١٤ ، ٢٠ من القصيدة : ١٧ — الديوان .

(٨) انظر : الديوان : القصيدة : ٥ .

وخطباتهم[١] ، كما شارك فى فتوح آذربيجان وأرمينية[٢] .

وللشماخ رحلة أخرى إلى « مصر » ، مع نفر من بنى ثعلبة ، انفرد بذكر خبرها راوى أراجيز ديوانه[٣] إلا أنه لم يرد فى هذا الخبر ، ولا فى هذه الأراجيز ، ما يشير إلى هدف هذه الرحلة ، ولا إلى زمانها ، وقصة هذه الرحلة غامضة ، كما أن كثيراً من الأشخاص ، الذين صاحبوا الشماخ فيها مجهولون ، نكاد لا نعرف عنهم شيئاً[٤] .

تكوينه الشعرى :

لم يرد فى أخبار الشماخ — فيما نعلم — أنه لزم شاعراً بعينه ، عنه روى ، وعليه تخرج فى قرض الشعر ، كما أنه ليس فى شعره الذى بين أيدينا ، ما يدل على أنه كان يترسم خطى شاعر بذاته ، أو يسير على نهجه فى شعره بعامة .

ومع ذلك ، لا نحسب الشماخ كان شاعراً مستقلا فى نفسه ، بعيداً عن غيره من الشعراء ، فنحن نلمح فى بعض شعره أثراً لبعض من سبقه ، وشبهاً لبعض من عاصره ، من فحول الشعراء ، من أمثال : أوس بن حجر[٥] ، وطرفة ابن العبد[٦] ، وكعب بن زهير[٧] . . . وغيرهم .

وإذن : فمن الطبيعى ، أن يكون الشماخ قد روى أشعاراً لكثير من سابقيه فى حداثته ، وأنه كان يتمثل هذه الأشعار ، ويرسبها فى حافظته ، ثم يعيدها على الرواة والناس ، وأن ذلك كان أحد مقومات تكوينه الأدبى .

---

(١) الطبرى : ٤/١١٥ — ١١٦ .

(٢) الطبرى : ٤/٢٥٦ — ٢٥٧ ، وأنساب الأشراف : ١٢/ لوحة ١١٠٤ ، وشرح شواهد المغنى للبغدادى (مخطوط) ٢/٥٩٥ . وانظر أيضاً : ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ .

(٣) انظر مقدمة الراوى لأراجيز الديوان ، وانظر الأرجوزة : ٢٣ البيت : ١٨ .

(٤) انظر التعليق على الأرجوزة : ٢٧ .

(٥) يبدو تأثر الشماخ بأوس بن حجر واضحا ، فى وصفه للقوس ، كما يتبين من دراستنا لشعره .

(٦) يلاحظ الشبه قويا بين ناقة الشماخ وناقة طرفة ، مما سيأتى فى الموازنة بين وصفيهما للناقة .

(٧) الشماخ وكعب متعاصران ، وفى لاميتيهما المبدوءتين بقولهما « بانت سعاد » معان كثيرة مشتركة كما سنرى عند الموازنة بين وصفيهما للناقة .

على أنه كان لما رزق به ، من نفس حساسة شاعرة ملهمة ، أثر واضح فى تكوين شخصيته الأدبية ، فقد ساعده هذا الاستعداد الفطرى ، على التفاعل مع كثير من مظاهر البيئة الطبيعية ، التى نشأ فيها ، فتدفقت شاعريته ، بكثير من صور هذه البيئة جامدة ومتحركة ، كما شكلت هذه البيئة شعره : أسلوباً ، وموضوعاً ؛ إذ كانت خشونة طبعه صورة لخشونة الحياة البدوية من حوله ، ومن ثم اتسمت ألفاظه بالجزالة ، وعباراته بالقوة ، وتمثلت البادية بحيوانها ونباتها ، وطبيعة أرضها وسمائها ، فى شعره كما سيأتى .

كذلك أتاحت له أسفاره العديدة ، أن يتنفس فى أفق فسيح ، وأن تتعدد المشاهد أمام ناظريه ، وأن يتعرف على هذه البيئة — فى أوسع صورها — عن كثب ، فهو قد عاش — خلال رحلاته — ظروفها المختلفة ، وانعكس كل ذلك فيما رسمه لها من لوحات فنية رائعة .

الشماخ وشئون القبيلة :

مر بنا أن الشماخ ذبيانى النسب ، وأن ذبيان كانت من القبائل ذات السطوة والبأس ، وأنها كثيراً ما كانت تغير ويغار عليها ؛ ولذا حفل تاريخها بالعديد من الأيام المشهورة ، والوقائع المذكورة ، التى انجلى الكثير منها عن انتصارات ، أضافت أمجاداً إلى أمجادها ، وألهجت ألسنة شعرائها بالإشادة بمكانتها ، وعزيز جانبها ، وتمجيد أبطالها وزعمائها ، الذين ذادوا عن حياضها ، وحموا أحسابها من عار الهوان ، وحريمها من ذل السبى ، كما أبكوا القوافى فى رثاء من سقط من فرسانها فى ساحة الشرف ، وأطلقوا ألسنتهم فى أعدائها ، يجردونهم من كل مزية ، ويلصقون بهم مذلة الخزى والعار .

وليس من شك فى أن ذاكرة الأجيال من بنى ذبيان ، قد ظلت محتفظة بصور هذه الأمجاد ، التى أحرزها الآباء والأجداد ، وأن هذه الأجيال قد أضافت إليها ما يعززها ، ويثبت دعائمها .

وليس من شك كذلك فى أن الشماخ كان على علم بها من شيوخ الحى ، الذين كانوا يحرصون الحرص كله ، على أن يصبوا فى آذان الأجيال الجديدة من أبناء القبيلة ، تاريخ قبيلتهم ، وأحاديث فخارها وأبطالها ، وسير عظمائها ؛ إذكاء لروح

العصبية القبلية فيهم ، وحفزاً لهممهم ، حتى يشبوا حريصين على حماية هذا المجد التليد ، متخذين من أبطال القبيلة الراحلين القدوة والمثل .

نقول : كان الشماخ على علم بذلك كله — لا شك — بل لقد أدرك فى فترة من حياته ، بعض أيام ذبيان المشهورة ، التى استمرت بعض أحداثها ، إلى ما بعد ظهور الإسلام ، كحروب داحس والغبراء[١] .

وأغلب الظن ، أنه قد حدثت وقائع بين بنى ذبيان وغيرهم فى حياته ، فضلا عما كان يحدث من اشتباكات بين عشائر ذبيان نفسها « فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائماً ، بل كثيراً ما كانت تتحارب ، وتتقاتل ويعتزل بعضها بعضاً . . »[٢] .

ومن أمثلة ذلك ، ما كان من قتال بين بنى جحاش — بيت الشماخ — وبنى رزام يعينهم بنو حَشْوَرة — وكلهم من بنى ثعلبة بن سعد — فى حياة الشماخ[٣] .

وإذن : فماذا كان موقف الشماخ من هذه الأحداث ، فى حياة قبيلته وقومه ؟ وما مدى إسهامه — كشاعر — فى أداء حقهما عليه ؟

الواقع ، أن ما لدينا من شعر الشماخ ، يصوره بريئاً أو كالبرىء من الشعور بالواجب القبلى ، فهو قد خلا ، أو كاد يخلو من كل ما يتصل بالاهتمامات العامة لقومه .

وإنك لتقرأ شعره من أوله إلى آخره ، وتروح تتلمس منه ما ينم عن شىء من ذلك فلا تعثر على شىء ، اللهم إلا إشارات سريعة ، يفخر فيها بمجد قومه التليد ، وشجاعتهم البالغة ، وكرمهم الأصيل ، كل ذلك فى معرض الفخر الذاتى ، نجد ذلك فى قوله :

إنى امرؤ من بنى ذبيان قد علموا ... أحمى شريعة مَجْدٍ غير مَوْرود
بل هل أتاها على ما كان من حَدَثٍ ... أنَّ الحروبَ اتَّقتنا بالصناديد

---

(١) تاريخ العرب : عصر ما قبل الإسلام (مبروك نافع) : ١٩٦ .
(٢) تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٢٦٨ .
(٣) انظر : ديوان مزرد بن ضرار بشرح ثعلب : ٦٩ .

إن الضِّراب بِبِيضِ الهند عادتنا ولا نُعَوَّدُ ضَرْباً بالجَلَامِيد (١)

وقوله :

وإنى لمِنْ قومٍ على أَن ذَمَمْتِهم إذا أَوْلَمُوا لم يُولِموا بالأَنافح (٢)

وهنا يحق لنا أن تتساءل : لماذا لم تحرك أحداث القبيلة ، وشئونها العامة ، شاعرية الشماخ ؟ وما السر الذى جعله يبدو وكأنه فى عزلة عن هذه الأحداث ؟

ليس لدينا ما نجيب به عن هذا التساؤل ، إلا أن نفترض أن الشماخ قد شغل بهموم حياته الخاصة ، وتدبير أمر معاشه ، والسعى فى إصلاح ماله ، منذ حياته الباكرة — على نحو ما مر بنا — عن أن يلتفت إلى قبيلته ، : ليمجدها فى شعره ، ويخلد مفاخرها ، ويهجو خصومها ، فى قوافيه . وهو بذلك كان فى شبه عزلة عن الحياة العامة ، منطوياً على نفسه ، ولعل ذلك يفسر لنا سر ميله إلى الوصف ، حتى كاد شعره أن يقتصر عليه ، كما سيأتى فى دراستنا لشعره ، فقد كان يجد فيه وجهاً من وجوه السلوى والرياضة ، التى يتلهى بها عن نفسه . فانثنى يقلد الطبيعة جامدة ومتحركة ، مؤلفاً النماذج التى تتشابه تمام التشابه مع النماذج التى يتصدى لوصفها .

وقد يضاف إلى ذلك ، أن مواهبه لم تكن تؤهله لهذا النوع من الشعر ، الذى يتناول الشئون العامة لحياة الجماعة ، ولعل مما يقوى هذا الاحتمال ، ماسنراه من موقف الشماخ إزاء بعض المعارك الإسلامية ، التى اشترك فيها بسيفه فى صفوف المسلمين .

إسلامه :

ليس هناك من خلاف فى أن الشماخ قد أدرك الإسلام ، وأسلم .

والسؤال الآن هو : متى أسلم ؟

المفهوم من أخبار الشماخ ، والخلاف حول صحبته — على ما سيأتى — أنه أسلم فى حياة الرسول (ص) ، إلا أننا لم نجد من تعرض إلى ذكر العام الذى أسلم فيه ، كما أنه ليس بين أيدينا من الأدلة ، ما ينفى أو يثبت ، تقدم إسلامه على إسلام قومه من بنى ذبيان .

---

(١) الديوان : القصيدة : ٤ الأبيات : ١٧ ، ٢٤ ، ٣٢ .

(٢) الديوان : القصيدة : ٣ البيت : ٨ .

وقد مر بنا ، أن إسلام ذبيان تأخر عن فتح مكة ، وأن وفودها قدمت على الرسول (ص) معلنين إسلام قومهم (سنة ٩ هـ) وهى عام الوفود .

وليس معنى ذلك ، أن أحداً من ذبيان لم يسلم قبل هذا التاريخ ، فقد ذكروا : أن الرسول (ص) حين بلغه أن جمعاً من بنى ثعلبة بن سعد ، وبنى محارب بن خصفة ، يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة ، خرج لملاقاتهم (سنة ٣ هـ) فلقى رجلا من بنى ثعلبة — رهط الشماخ — يدعى جباراً[١] فدعاه الرسول (ص) إلى الإسلام فأسلم[٢] .

وكتب المغازى والسير تذكر أسماء كثيرين ممن أسلموا قبل إسلام قومهم ، وأقاموا بينهم ، وكتموا إسلامهم ، أو أعلنوه ودعوا قومهم إليه ، فقد « كانت انتصارات المسلمين تجذب كل يوم أفراداً من شتى القبائل ، ولا سيما من كان يقيم منهم بجوار المدينة ، لتزداد بهم صفوف أتباع النبى ، وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبى بالمدينة مسلماً ، ثم يعود إلى قومه داعياً للإسلام ، جاداً فى ذلك »[٣] .

ومع ذلك ، فنحن نستبعد أن يكون الشماخ من هؤلاء الأفراد الذين وفدوا على الرسول (ص) ، معلنين إسلامهم قبل إسلام قومهم ؛ ذلك أنه شاعر مشهور ، فلو أن ذلك قد حدث ، لما فات على الرواة ذكره ، كما ذكروا وفادة غيره من الشعراء على الرسول (ص) ، كالنابغة الجعدى[٤] ، وبجير بن زهير ، وكعب أخيه[٥] ، ولبيد بن ربيعة[٦] . . . وغيرهم .

فإن قيل : لعله دعى إلى الإسلام فأجاب ، دون أن تكون له وفادة على الرسول (ص) ، ثم كتم إسلامه خوفاً من قومه ، الذين عرفوا بشدة عدائهم للإسلام .

---

(١) ذكره ابن حجر فى الإصابة : ١/٢٣٠ فيمن ثبتت صحبتهم للرسول باسم « جبار الثعلبى » ولم يزد فى نسبه على هذا .

(٢) ينظر فى تفصيل هذا الخبر : أنساب الأشراف (مطبوع) : ١/٣١١ ، والسيرة الحلبية : ٢/٢٢٤ ، وفيها « حباب » بكسر الحاء بدل « جبار » ، وطبقات ابن سعد : ٣/٧٣ — ٧٤ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى : ١/١٢١ .

(٤) الأغانى : ٤/١٣٠ .

(٥) المصدر السابق : ١٥/١٤٢ .

(٦) المصدر السابق : ١٤/٩٠ .

قلنا : إن هذا مجرد احتمال ، قد يضعفه أن الأمر لو كان كذلك لتحدث به الشماخ ، أو من عرف أمر كتمانه إسلامه بعد أن زال سبب هذا الكتمان ، بدخول ذبيان فى الإسلام ، ولوصل علمه إلى الرواة ، فذكروه كما ذكروا من أسلم سرًّا من قريش وخزاعة وغيرهما ، وأقام بين قومه يخفى إسلامه .

ولسنا بهذا نقصد إلى استقصاء الاحتمالات الممكنة ، فى أمر تقدم إسلام الشماخ على إسلام قومه ، وإنما قصدنا أن نقدم ما يمكن أن يكون سنداً لما نراه يغلب على ظننا ، من أن الشماخ قد دخل فى الإسلام حين دخل فيه قومه من بنى ذبيان ، وذلك بعد فتح مكة فى السنة التاسعة من الهجرة ، كما تقدم .

هل الشماخ صحابى ؟

ليس من غرضنا هنا ، أن نعرض لتفصيل الخلاف بين العلماء ، فيما وضعوه من شروط يجب توافرها فيمن يعتبرونه صحابيًّا ، وإنما قصارانا أن نذكر : أن منهم من تشدد فى هذه الشروط ، فلم يعد من الصحابة « إلا من أقام مع رسول الله (ص) سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين »[١] ومنهم من يتوسع ، فيعد من الصحابة من أسلم فى زمن الرسول ، وإن لم يره ولم يصحبه ساعة من نهار : كالأحنف بن قيس وغيره[٢] .

وممن توسع فى ذلك ، ابن عبد البر ، الذى يذكر فى مقدمة كتابه «الاستيعاب» : أنه لم يقتصر فيه على من صحت صحبته ومجالسته للرسول (ص) ، بل ذكر أيضاً من لقى النبى ولو مرة ، ومن رآه ولو رؤية واحدة ، ومن سمع منه لفظة فأداها عنه ، ومن كان مؤمناً به ، وقد أدى الصدقة إليه ، ولم يرد عليه[٣] .

وأهل العلم ، على أنه يعد من الصحابة كل من أسلم وقد أدرك الحلم ، وعقل أمر الدين ، وصحب الرسول (ص) ولو ساعة من نهار أو رآه[٤] ، ومن ثم ، فالصحابى

---

(١) أسد الغابة : ١/١٢ . فقد روى ابن الأثير بسنده عن سعيد بن المسيب أنه قال : « والصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله سنة أو سنتين .. » إلخ النص .

(٢) المصدر السابق : ١/٧ .

(٣) الاستيعاب : ١/١٠ .

(٤) أسد الغابة : ١/١٢ .

عند ابن حجر « من لقى النبى صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على الإسلام ، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته أو قصرت ، ومن روى عنه ومن لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغز ، ومن رآه ولو لم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى . . »[١].

ويروى عن الإمام أبى حامد الغزالى قوله : « لا ينطلق اسم الصحبة إلا على من صحبه [أى النبى] ، ثم يكفى فى الاسم من حيث الوضع [اللغوى] الصحبة ولو ساعة ، ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته »[٢] .

هذه إلمامة سريعة ببعض الآراء فيمن يعد صحابيًّا ، قصدنا بذكرها أن نكون على بعض العلم بوجه من عد الشماخ من الصحابة ، ومن أخرجه منهم فى عرضنا التالى :

يقول أبو الفرج فى ترجمة الشماخ : « والشماخ مخضرم ، ممن أدرك الجاهلية والإسلام ، وقد قال للنبى صلى الله عليه وسلم :

تعلَّم رسولَ الله أنَّا كأننا أَفَأْنا بأنْمَارٍ ثعالبَ ذى غِسْلِ[٣]

ونسبة أبى الفرج هذا البيت للشماخ ، تقتضى أن الشماخ رأى الرسول (ص) وخاطبه ، وقد نسب البيت للشماخ أيضاً الصفدى[٤] ، والبيت ومعه آخر للشماخ فى الإصابة[٥] نقلا عن أبى الفرج ، وقد أثبتنا البيتين فى ملحق الديوان ، ورجحنا نسبتهما لمزرد[٦] أخى الشماخ ، وهما فى أبيات له فى ديوانه .

---

(١) الإصابة : ١/٤ .

(٢) أسد الغابة : ١/١٢ . ونحو هذا الذى ذكره الغزالى مانقله ابن الأثير – فى نفس المرجع والصفحة – عن القاضى أبى بكر محمد بن الطيب من قوله : « لا خلاف بين أهل اللغة فى أن الصحابى مشتق من الصحبة ، وأنه ليس مشتقا لى قدر مخصوص منها بل هو جار على كل من صحب قليلا أو كثيراً ... ولذلك يقال : صحبت فلانا حولا وشهراً ، ويوما وساعة فيوقع اسم الصحبة بقليل مايقع عليه منها وكثيره ، قال : ومع هذا فقد تقرر للأمة عرف ، أنهم لا يستعملون هذه التسمية إلا فيمن كثرت صحبته ... لا على من لقيه ساعة أو مشى معه خطاً ، أو سمع منه حديثا ، فوجب لذلك ألا يجرى هذا الاسم إلا على من هذه حاله . . » .

(٣) الأغانى : ٨/٩٨ ، وأنمار : هم بنو أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان . وذى غسل : موضع .

(٤) الوافى بالوفيات : الأجزاء : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد : ص ٤٦٣ .

(٥) الإصابة : ٣/٢١٠ .

(٦) انظر الكلام على نسبة البيتين فى هامش ملحق الديوان : القطعة : ٣٧ .

ولعل هذا الذى ذكره أبو الفرج ، هو الذى جعل بعض من ذكر الشماخ أو ترجم له يعده صحابيًّا[١] ، بناء على أنه رأى الرسول ، وجالسه ، وخاطبه .

ويقول ابن عبد البر — بعد أن روى قول أحمد بن زهير (المعروف بابن أبى خيثمة) الذى ذكر فيه أسماء الشعراء الذين صحبوا الرسول ورووا عنه — يقول : « ولم يذكر أحمد بن زهير ، لبيد بن ربيعة ، ولا ضرار بن الخطاب ، ولا ابن الزبعرى ؛ لأنهم ليست لهم رواية ، وكذلك أبو ذؤيب الهذلى ، والشماخ بن ضرار ، وأخوه مزرد بن ضرار »[٢] .

فكلام ابن عبد البر يفهم أنه يعد الشماخ صحابيًّا — وإن لم تكن له رواية — علماً بأن ابن عبد البر ممن نسب البيت الذى أنشده أبو الفرج لمزرد[٣] لا للشماخ ، والذى يظهر ، أنه إنما عده صحابيًّا ، من قبيل التوسع فى إطلاق اسم الصحبة على من أسلم فى زمن النبى (ص) وإن لم يره ولم يصحبه ، وقد أشرنا منذ قليل إلى أن ابن عبد البر ممن ذهب إلى هذا التوسع فى كتابه ، وهو مذهب لا يعول عليه عند أهل العلم ، كما تقدم .

أما ابن حجر ، فإنه يشير إلى أنه أول من ترجم للشماخ فى الصحابة[٤] ، وأنه اعتمد فى ذلك على قول ابن عبد البر السابق ، وعلى البيت الذى أنشده أبو الفرج للشماخ : فهو يقول — بعد أن يذكر قول ابن عبد البر السابق : « ولكن ذلك لا يدل على ثبوت صحبة الشماخ ، إلا أن العهدة فيه على البيت الذى أنشده أبو الفرج »[٥] . وواضح أن ابن حجر لم يكن مطمئنًّا إلى عد الشماخ صحابيًّا ، فهو يجعل العهدة فى ثبوت صحبته — أو فى القول بصحبته — على رواية أبى الفرج السابقة ، وهى

---

(١) من هؤلاء : ابن هشام فى شرح « بانت سعاد » : ٥٥ : حيث يذكر الشماخ ويقول : « وهو صحابى مثل كعب رضى الله عنه » ؛ والسيوطى : فى شرح شواهد المغنى : ٣٠٣ ، والبغدادى فى : خزانة الأدب : ١/٥٢٦ ، ٢/١١٧ ، وشرح واهد المغنى : ٢/٥٩٧ .

(٢) الاستيعاب : ١/٣٢٤ آخر ترجمة « النابغة الجعدى » .

(٣) الاستيعاب : ١/٣٠٢ .

(٤) ذكر ابن حجر الشماخ فى القسم الأول من الصحابة ، وهم الذين ثبتت صحبتهم للرسول (ص) ، فى ثلاثة مواضع من الإصابة : ٣/٢١٠ وما بعدها ، ٦/٢٩٧ باسم « الهيثم بن ضرار » وقال : « قال ابن أبى خيثمة : هو اسم الشماخ » وفى : ٦/١٣٠ باسم « مغفل بن ضرار » وقال : « هو الشماخ » .

(٥) الإصابة : ٣/٢١٠ وما بعدها ، وانظر : رأى ابن حجر الذى أوردناه منذ قليل فيمن يعد صحابيا .

– إن صحت – كانت الدليل الوحيد على أن الشماخ لقى الرسول (ص) ؛ ومن ثم ، يصح عده من الصحابة على رأى ابن حجر ومن ذهب مذهبه .

ولكن ابن حجر كان على علم بأن البيت الذى أنشده أبو الفرج مختلف فى نسبته للشماخ ، فهو يصرح بأن ابن عبد البر ذكر هذا البيت فى أبيات لأخيه مزرد[١] ؛ ولذا نراه يحتاط ، فيذكر الشماخ أيضاً فى القسم الثالث[٢] مع المخضرمين ، الذين لم تثبت رؤيتهم للرسول ، ولم تثبت صحبتهم كالحطيئة[٣] ، وجزء[٤] بن ضرار أخى الشماخ .

والرأى عندنا : أن الشماخ لا صحبة له ؛ إذ لم يثبت حتى مجرد رؤيته للرسول ولو مرة واحدة ، أما بيت أبى الفرج الذى أنشده للشماخ ، والذى يثبت له هذه الرؤية ، فالراجح عندنا أنه لمزرد كما تقدم .

ويبدو أن هذا الذى نذهب إليه ، هو ما صح عند ابن سعد (فى الطبقات الكبرى) وابن الأثير (فى أسد الغابة) فكل منهما لم يذكر الشماخ فيمن ذكر من الصحابة .

الشماخ المسلم :

لسنا هنا نقصد – بالطبع – الحكم على إسلام الشماخ ، ومدى صحته أو فساده ، فذلك أمر حقيقة علمه عند علام الغيوب – سبحانه – المطلع على خفايا الصدور ، ونوايا القلوب .

وإنما نحن نحاول أن نستشف من أخبار الشماخ وأشعاره ، سلوكه المتصل بالدين بعد إسلامه ، ومدى توخيه فى هذا السلوك روح الإسلام وتعاليمه ، أو انحرافه عنهما .

وقد دعانا – خاصة – إلى تناول هذا الموضوع بالبحث ، ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى فى بعض ما كتبه عن الشماخ ، وصوره فيه بعيداً عن روح الإسلام وتعاليمه ، سيئ الطوية ، مستخفًّا بالعرف الدينى .

---

(١) الإصابة : ٣/٢١٠ ، ٦/٨٥ .
(٢) المصدر السابق : ٦/١٧٩ ، باسم « معقل بن ضرار » .
(٣) المصدر السابق : ٢/٦٣ .
(٤) المصدر السابق : ١/٢٧٣ .

يقول أستاذنا الدكتور الكفراوى : « تتشابه حياة الشماخ ومعاصره الحطيئة تشابهاً شديداً ، فكلاهما من تلك الطائفة الحريصة على قرض الشعر ، والاكتساب به ، برغم كراهية الدعوة الجديدة لذلك ، وكلاهما مستخف بالعرف ، محب للإساءة ، سريع إلى نهش أعراض الناس ، وقد اتفقا حتى فى تفاصيل ذلك الشر ، فقد تهدد أحدهما عمر بن الخطاب ليكف عن هجاء الناس ، وتهدد الثانى عثمان بن عفان ، ثم إن كلا منهما قد هجا ضيوفه ومن عليهم بالقرى . . »[١].

ويقول مدللا على سوء طوية الشماخ ، وجرأته على الدين : « وقصته مع زوجته وأصهاره من سُليم نموذج آخر لسوء طويته ، فقد اختلف معها اختلافاً جره إلى ضربها ، فشكاه أهلها إلى كثير بن الصلت قاضى عثمان بالمدينة ، وبين يدى كثير قام بتمثيلية ماكرة ، وذلك أنه أبدىٰ تحرجاً شديداً من اليمين ، لما وجهت إليه ليغرى أصهاره بها ، ثم أقدم عليها لماجد الجد فى غير ما تحرج ولا ورع ، ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يباهى بما قام به من مكر وخديعة فيقول :

أَتتنى سُلَيْم قضَّها وقضيضها ... تُمَسِّح حولى بالبقيع سِبالَها

يقولون لى : يا احلفْ ولستُ بحالفٍ ... أُخَادِعِهم عنها لكيما أنالَها

ففرجتُ همَّ النفس عنى بحلفةٍ ... كما شَقَّت الشَّقْراءُ عنها جِلالَها »[٢]

والحق أن كثيراً مما قاله أستاذنا الدكتور مبالغ فيه إلى حد كبير ، كما أنه اعتمد فى بعض ما ذكره على أخبار خاطئة ، ألصقت بالشماخ إلصاقاً ، وفى بيان ذلك نقول :

إن ما بين أيدينا من أخبار الشماخ وأشعاره ، لا يصوره شاعراً مداحاً حريصاً على التكسب بشعره ، إلى الحد الذى يزعم أستاذنا ، فحظ المديح مما صح له عندنا من شعر ورجز ضئيل جداً[٣] ، وقد خص « عرابة بن أوس » بأكثره وأجوده ، وقصة اتصاله بعرابة هذا ، تدل على أنه لم يقصد إليه — فى أول الأمر — قصداً ، طامعاً

---

(١) تاريخ الشعر العربى : ١/٥٩ .

(٢) تاريخ الشعر العربى : ١/٦٠ والأبيات فى الديوان : القصيدة : ١٥ الأبيات : ٧ — ٩ .

(٣) عدد أبيات المديح فى شعر الشماخ وفى رجزه كليهما (٣١ بيتا) من مجموع شعره ورجزه البالغ (٦٤٩) بيتا . انظر : الإحصائية : ص ١٦٤ من هذا الكتاب .

فى حبائه، فالرواة يروون: أن عرابة قدم من سفر فجمعه الطريق والشماخ بن ضرار، فتحادثا، فقال له عرابة: ما الذى أقدمك المدينة ؟ فأخبره أنه قادم ليمتار لأهله منها، فأوقر له رواحله براً وتمراً، وأنزله وأكرمه. فقال فيه الشماخ:

رأيتُ عَرَابَةَ الأَوسىّ يَسْمُو إلى الخَيْرات مُنْقطِعَ القرين
إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ تلقَّاها عَرَابةُ باليمين [١]

حقيقة أن الشماخ قصد عرابة بعد ذلك طالباً رفده، كما فى قوله:

إليك أَشكو عَرَابَ اليومَ خَلَّتنا ياذا العلاء وياذا السُّؤدد الباقى [٢]

وقوله مخاطباً ناقته:

إذا بَلَّغْتِنى وحملتِ رحْلى عَرَابة فاشْرقى بدم الوتين

وقوله:

إليك بعثتُ راحلتى تَشَكَّى كُلُوماً بعد مَقْحَدِها السمين [٣]

وأنه قصد أيضاً «يزيد بن مربع الأنصارى» وصرح بطلب حذيته، فى قوله:

وإنى لأَرجُو من يزيد بن مَرْبع حَذِيَّته من خَيْرتَيْن اصطفاهما
حَذِيَّتَهُ من نَائلٍ وكرامةٍ سعى فى بُغَاءِ المجدِ حتى احتواهما [٤]

إلا أن رحلاته إلى الممدوح — كما فى ديوانه — لم تتجاوز ثلاث رحلات، اثنتان منهما إلى عرابة، وواحدة إلى يزيد بن مربع، كما أن ما قاله فى عرابة لا يتجاوز تسعة عشر بيتاً، ضمن قصيدتين عدة أبياتهما خمسون بيتاً، على الرغم من هذه الأريحية التى أبداها عرابة فى أول اتصال له بالشماخ، وعلى الرغم من أن عرابة كانت له — فيما يبدو — يد أخرى على الشماخ غير العطايا والصلات، كما يظهر من قوله مخاطباً عرابة:

---

(١) الكامل للمبرد: ١/٨٨، والشعر والشعراء: ١/٢٧٨، والبيتان فى الديوان: القصيدة ١٨ البيتين: ٢٣، ٢٥.
(٢) الديوان: القصيدة: ١٢ البيت: ١٣.
(٣) الديوان: القصيدة: ١٨ البيتين: ٨، ٩.
(٤) الديوان: القصيدة: ١٧ البيتين: ٢١، ٢٢.

فقد أتانى بأن قد كنت تغضبُ لى ووَقْعَةٌ عنك حقًّا غير إبرَاق
فسرَّنى ذاك حتى كدْتُ من فَرَحٍ أُسَاوِرُ الطَّودَ أو أَرْمِى بأَرْوَاق
فسوف يلقاهُ منِّى — إن بقيت له — لاق بأَحْسَنِ ما يَلْقَى به اللاَّقى [١]

كذلك لم يزد ما قاله فى يزيد بن مربع على أربعة أبيات ، ضمن قصيدة عدة أبياتها خمسة وعشرون بيتاً ، أما عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فقد مدحه بأربعة أبيات من الرجز هزيلة فى معناها ، ليس مثلها مما يدل على حرص قائله على أن يغترف من بحر هذا الجواد المشهور .

ولا نعلم أنه مدح أحداً غير هؤلاء . اللهم إلا شخصاً مجهولا قال فيه أربعة أبيات (الديوان : القصيدة : ٢) .

أفبعد هذا يقال : إن الشماخ كان من الحريصين على التكسب بالشعر ، وأنه فى ذلك يشبه الحطيئة الذى يقول عنه أستاذنا الكفراوى : إنه كان ملحفاً فى سؤاله ، وقصصه فى هذا الصدد كثيرة ، وأساليبه متنوعة وطريفة[٢] .

أما ما وصفه به من أنه محب للإساءة ، سريع إلى نهش أعراض الناس ، وما ذكره من أن الخليفة عثمان بن عفان تهدده ليكف عن هجاء الناس ، فلا ندرى علام اعتمد أستاذنا فى هذا القول ، فليس فيما رواه الرواة من أخبار الشماخ — فيما نعلم — ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد ، فإذا انقلبنا إلى شعره نبحث فيه عن مدى صحة هذه الدعوى ، أعوزنا فيه ما يؤيد هذا الحب للإساءة ، وتلك السرعة إلى نهش الأعراض .

ففضلا عن أن ما وصل إلينا من شعره فى الهجاء أقل من هذا الذى وصل إلينا من شعره فى المديح[٣] ، فإنه لم يكن فى هذا الهجاء مدفوعاً بحب الإساءة إلى الناس ، وإنما هو فيه دائماً فى موقف المدافع أو المستثار ، لا المهاجم البادئ بالعدوان .

---

(١) الديوان : القصيدة : ١٢ لأبيات : ١٩ — ٢١ .

(٢) تاريخ الشعر العربى : ٥٣/١ . وقال الأصمعى : « كان الحطيئة جشعا سئولا ملحفا ، دفىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير . . » (الأغانى ٤٣/٢) .

(٣) لم يزد ما وصل إلينا من قوله فى الهجاء والتهديد به عن (٢١) بيتا : راجع الإحصائية : ص : ١٦٤ من هذا الكتاب .

فهو يهجو جزءاً[١] أخاه ؛ لأنه لم يرع حق الأخوة، ولم يحترم مشاعر أخيه ، حين انتهز فرصة غيابه فى سفر له ، فأسرع إلى المرأة التى كان أخوه الشماخ يحبها ، ويعتزم الزواج منها ، فتزوجها هو ، ونحن لا نعرف ماذا قال الشماخ فى هجاء أخيه بسبب هذه الصفعة المؤلمة ؛ إذ لم يصل إلينا منه إلا بيت واحد .

وهو يقول فى أصهاره من بنى سليم — بسبب ما كان من زوجته السلمية التى سبق أن ذكرنا قصتها معه[٢] :

وإنكِ من قوم تَحِنُّ نسِاؤُهم ... إلى الجانب الأَقْصَى حَنينَ المنائح
وإياكُمُ لا أَخْرِقَنَّ أَدِيمَكُم ... بمُحْتَفِلٍ فى أَيْبَسِ العظمِ جَارح[٣]

فهو فى البيت الأول يخاطب « أسماء » تلك المرأة التى اعترضته تسأله عما فعل بزوجته « هند » السلمية ، كما سبق ، وفى الثانى يوجه الخطاب إلى قومها (بنى سليم) ، ولا يخفى أنه فى هذا البيت يتهددهم فقط بالهجاء إن لم يكفوا عنه .

وأكثر هجائه — فى الديوان — قاله فى « الربيع بن علباء السلمى[٤] » ، ردًّا على هجائه إياه ، كما يظهر من قوله :

نبِّئت أَن ربيعاً أَن رعى إبلا ... يهدى إلى خَنَاهُ ثانىَ الجِيد[٥]

وقوله يخاطب قوم الربيع :

إن كنْتُمُ لستمُ ناهين شاعرَكم ... ولا تناهَوْن عن شَتْمى وتهديدى
فاجْرُوا الرِّهانَ فإنِّى — ما بقيتُ لكم — ... غَمْرُ البديهة عَدّاءُ القراديد[٦]

وهو فى قصيدته — الوحيدة — التى هجا فيها الربيع هذا ، يتهدده وقومه بالهجاء أكثر مما يهجوهم بالفعل[٧] .

---

(١) انظر ملحق الديوان : رقم : ٣٨ .
(٢) انظر : ٩١ — ٩٤ من هذا الكتاب .
(٣) الديوان : القصيدة : ٩/٣ والبيت الزائد بعده فى الهامش .
(٤) راجع فى ترجمته وسبب هجاء الشماخ إياه : مقدمة القصيدة : ٤ من الديوان ، وأيضاً ص ١٤١ من هذا الكتاب .
(٥) الديوان : القصيدة : ٤ البيت : ٩ .
(٦) القصيدة السابقة : البيتين : ٢١ ، ٢٢ .
(٧) راجع القصيدة السابقة : الأبيات من : ١٠ إلى آخر القصيدة وانظر : دراستنا لفن الهجاء فى شعره : ص ٢٥٣ وما بعدها .

ونروح نفتش عن الأعراض التى نهشها الشماخ فى هجائه كله ، فلا نجد مما قد يصدق عليه ذلك إلا بيتين اثنين : أحدهما : قوله السابق يخاطب « أسماء السلمية » :

وإنك من قوم تحن نساؤهم إلى الجانب الأقصى حنين المنائح

والثانى : قوله معرضاً بالربيع بن علباء ، فى قصيدته التى هجاه فيها :

أنا الجحاشى شماخ وليس أبى بِنِخْسَةٍ لنزيع غير موجود [١]

ومن يدرى ؟ فلعله لم يقصد فى هذا البيت إلى تعريض قط .

هذه هى كل المناسبات التى قال الشماخ فيها ما وصلنا من هجائه — تقريباً — ولا نحسبه فيها كان محبًّا للإساءة ، كما أنه لا ينبغى أن يقال عنه من أجل بيتين اثنين : إنه كان سريعاً إلى نهش أعراض الناس .

كما أنه لم يصل إلينا فى خبر للشماخ أو شعر ،أن عثمان بن عفان (ض) هدد الشماخ خاصة ، ليكف عن هجاء الناس ، على عكس الحطيئة ، الذى ألقى به عمر فى « قعر مظلمة » بسبب الهجاء[٢] ، وهدده بعد إخراجه من السجن بقطع لسانه[٣] إن عاد إليه .

وكل الذى فى شعر الشماخ مما يتصل بالخليفة عثمان ، هو قوله للربيع بن علباء السابق ذكره :

لولا ابنُ عَفَّان والسُّلطانُ مُرْتقبٌ أُوردْتَ فَجًّا من اللَّعْباء جُلْمُود [٤]

فهو يقول للربيع : إنه لا يمنعنى من هجائك هجاء موجعاً ، إلا الخوف من الخليفة عثمان .

وكان الخلفاء الراشدون يضربون بشدة على أيدى الشعراء — بعامة — الذين يضمنون أشعارهم هذا اللون من الهجاء ، الذى تبدو فيه النعرة الجاهلية ، والذى يتنافى مع روح الإسلام ، وتعاليمه ، وأخلاقه ، وأهدافه — كما سبق .

وأما القول : بأن الشماخ هجا ضيوفه ، ومن عليهم بالقرى . فهى دعوى

---

(١) القصيدة السابقة : البيت : ١٩ .
(٢) الأغانى : ٢/٥٢ .
(٣) المصدر السابق : ٢/٥٣ .
(٤) الديوان : القصيدة : ٤ البيت : ٢٦ .

ألصقت — خطأ — بالشماخ منذ القدم، وأقدم من روى هذا الخطأ — فيما نعلم — أبو الفرج : حيث قال فى ترجمة الشماخ « . . وهو أحد من هجا عشيرته ، وهجا أضيافه ، ومن عليهم بالقرى . . »[١] .

ويعود فى نفس الترجمة ، فيروى بسنده عن ابن قتيبة أنه قال : « كان الشماخ يهجو قومه ، ويهجو ضيفه ، ويمن عليه بقراه »[٢] .

ونرجع إلى ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، فنجده يصف بهذا الوصف مزرّداً لا الشماخ .

وأغلب الظن : أن هذا الخبر نقل لأبى الفرج عن ابن قتيبة محرفاً ، فأثبته كما سمعه ، ثم تابعه على ذلك بعض المتأخرين والمحدثين[٣] .

ومما يؤيد كون هذا الوصف لمزرد ، قول شارح ديوانه : « كان مزرد أقسم لا ينزل به ضيف إلا هجاه ، ولا يتنكب بيته أحد إلا هجاه . . »[٤] .

وفى ديوان مزرد شعر فى هجاء ضيفه[٥] ، وأشعار فى هجاء قومه من بنى عبد غنم ، وبنى سبيع ، وبنى أنمار[٦] . .

بينما يخلو ديوان الشماخ من كل ذلك تماماً .

ومزرد أيضاً هو الذى يمكن أن يوصف بالميل إلى الشر ، وحب الإساءة ، والفحش فى الهجاء ، فقد كان هجاء خبيث اللسان ، وشعره خير شاهد على ذلك .

---

(١) الأغانى : ٨/٩٨ .

(٢) المصدر السابق : ٨/٩٩ .

(٣) ممن تابع أبا الفرج من المتأخرين : الصفدى فى الوافى بالوفيات : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد ص ٤٦٣ . والبغدادى فى خزانة الأدب : ١/٥٢٦ . ومن المحدثين : محققا شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ٣/ هامش ١٠٩٠ . والدكتور الكفراوى فى : تاريخ الشعر العربى : ١/٥٩ . ومما هو جدير بالذكر ، أن العلامة المرحوم الشيخ أحمد شاكر قد سبق إلى التنبيه لهذا الخطأ : حيث قال معلقا على هذا الوصف لمزرد فى الشعر والشعراء (هامش : ٢٧٥) : « وهم صاحب الخزانة هنا وهماً عجيباً . . . فنقل هذا الوصف الذى وصف به مزرد فجعله للشماخ » . غاية الأمر أننا نرى أن البغدادى لم ينقل خطأ عن الشعر والشعراء ، وإنما نقل ما هو مثبت فى الأغانى مسنداً إلى ابن قتيبة ، والدليل على ذلك : أن النص فى كل من الخزانة والأغانى يكاد يكون واحدا ، بخلاف النص فى الشعر والشعراء ، فهو مختلف عنه فيهما بعض الاختلاف .

(٤) ديوان مزرد بن ضرار : ٦٦ .

(٥) انظر : ديوانه : ٦٧ .

(٦) ديوانه : ٥٢ — ٥٥ ، ٦٣ — ٦٦ .

وهو الذى تهدده عثمان ليكف عن هجاء قومه لما استأدوه[١] عليه ، فاعتذر إليه[٢] ، وأعلن توبته قائلا :

تبرأتُ من شتم الرجال بتوبةٍ إلى الله منى لا يُنَادَى وليدُها[٣]

أما قصة اليمين التى اتخذ منها « الدكتور » دليلا على سوء طوية الشماخ ، واستخفافه بالدين ، فنحن لا ننكر أنها يمين فاجرة ، وزرها عظيم ، ومن واجب المسلم أن يتورع عنها ، ولكن يجب ألا ننسى أن الشماخ كان بدويًّا ، فيه غلظة البادية وجفاؤها ، يضاف إلى ذلك أنه كان حديث عهد بالإسلام ، وقد نلتمس له العذر مع ذلك ؛ لأنه كان فى موقف حرج ، والناس يتهددونه ، ويتوعدونه ، وهم (بنو سليم) قوم ذوو عدد وقوة ، فلم يكن أمامه من وسيلة للخلاص إلا أن يلجأ إلى التحايل ، وقد وجد فى رضاهم باليمين منه فرصته الوحيدة للنجاة فاغتنمها .

ويبدو حرج موقفه واضحاً من قوله :

ففرَّجتُ همَّ النفس عنِّى بِحلْفَةٍ كما شقَّت الشَّقْراءُ عنها جِلاَلَها[٤]

وفى رواية « هم الموت عنى »

وقد أحسن ابن الرومى تبرير مثل هذه اليمين فى قوله :

وإنى لذُو حلفٍ كاذب إذا ما اضطررتُ وفى الحال ضيق
وهل من جُنَاح على مسلم يُدَافع بالله مالا يطِيق[٥]

ولعل مما يحتج به للشماخ فى هذا الموقف ، قول ابن قتيبة : (تأويل مختلف الحديث : ٤٣) « واعلم رحمك الله ، أن الكذب والحنث فى بعض الأحوال أولى بالمرء وأقرب إلى الله من الصدق فى القول ، والبر فى اليمين ، ألا ترى أن رجلا لو رأى سلطاناً ظالماً ، وقادراً قاهراً ، يريد سفك دم امرئ مسلم أو معاهد بغير حق ، أو استباحة

---

(١) استأدوه عليه : استعدوه عليه .
(٢) انظر : ديوانه : ٥٦ -- ٦٠ وانظر هامش ص ٥٦ من هذا الديوان .
(٣) ديوانه : ٥٧ .
(٤) الديوان : القصيدة : ١٥ البيت : ٩ .
(٥) خزانة الأدب : ١/٥٢٥ .

حرمه أو إحراق منزله . فتخرص قولا كاذباً ينجيه به ، أو حلف يميناً فاجرة ، كان مأجوراً عند الله . مشكوراً عند عباده » .

على أن هناك رواية أخرى أكثر تفصيلا لقصة هذه اليمين . ولا يفهم منها ما قد يفهم من الروايات الأخرى[١] من استهتار الشماخ باليمين ، وهى مروية عن « الزبير ابن بكار » مؤداها : أن قوماً استعدوا على الشماخ ، وزعموا أنه هجاهم ونفاهم فأنكر ، فأمر عثمان بن عفان كثير بن الصلت ، أن يستحلفه على منبر رسول الله (ص) ما هجاهم . فلما وصلوا إلى المسجد سارّه كثير بقوله : ويلك يا شماخ !! إنك لتحلف على منبر رسول الله (ص) ومن حلف به آثماً يتبوأ مقعده من النار ، قال الشماخ : فكيف أفعل ؟ فقال كثير : إنى سوف أحلفك ما هجوتهم ، فاقلب الكلام علىّ وعلى ناحيتى . فقل : والله ما هجوتكم ، فأردنى وناحيتى بذلك ، وإنى سأدفع عنك . ففعل الشماخ ما أشار به كثير عليه ، ففطن الخصوم إلى الحيلة ، وطلبوا منه أن يعيد اليمين . فأبى كثير . وقال : ما لى أتأوله . هل استحلفته إلا لكم ، وما اليمين إلا مرة واحدة ، انصرف يا شماخ فانصرف[٢] .

والمفهوم من هذه الرواية : أن الشماخ تحرج عن اليمين ، حين بصره « كثير » بمدى ما فيها من الإثم ، والتمس منه المشورة . ليتخلص من حرج الموقف من ناحية ، ويتجنب إثم اليمين من ناحية أخرى . فأشار عليه بما ذكر .

ومعلوم أن هذه الحيلة لم تغير شيئاً من حقيقة هذه اليمين . من حيث إنها يمين كاذبة ، ذلك أن الحالف ، إن حلف ابتداء من غير أن يطلب منه غيره الحلف ، فاليمين تقع على نيته هو ، أما إذا استحلف فحلف ، فإنما تقع اليمين على نية المستحلف لا الحالف . وعليه : يكون الشماخ كاذباً فى يمينه ؛ لأنه استحلف فكذب بالنسبة لما قصده مستحلفوه . ولا أدرى كيف فات هذا على « كثير » ، وهو الفقيه الذى أوفده عثمان للنظر بين الناس .

ورواية الزبير بن بكار هذه ، هى عندنا الرواية الأقرب إلى الصواب ؛ لأنها أكثر الروايات مناسبة ، لما قاله الشماخ من شعر فى قصة هذه اليمين ، وذلك قوله :

---

(١) راجع هذه الروايات فى هامش الديوان ، فى شرح البيت : ٧ من القصيدة : ١٥ .

(٢) الأغانى : ٨/٩٩ — ١٠٠ .

وجاءت سُلَيْم قضَّها بقضيضها تمسِّح حولى بالبقيع سِبَالَها
يقولون لى : احلفْ فلستُ بحالف أُخادِعهم عنها لكيما أنالها
ففرَّجْتُ كرْبَ النفس عنى بِحَلْفَة كما شَقَّت الشقراءُ عنها جِلاَلَها
بصاعقةٍ لو صادفتْ رَمْلَ عَالِج ورمْل الغَنَا يوماً لهالتْ رَمالَها
فقالوا : أَعِدها نستمعْ كيف قلتها فقال كثيرٌ : لا نُحِلُّ عِلاَلَها
فلولا كَثيرٌ ـ أنعم اللهُ بالَه ـ أَزَلَّتْ بأَعْلى حُجَّتَيْك نِعَالها [1]

وإذن ، فلم يكن الشماخ سيئ الطوية إلى الحد الذى يتصوره أستاذنا ، كما أن تعبيره عن قصة هذه اليمين فى شعره ، قد لا يكون مقصوداً به التباهى بما قام به من مكر وخديعة ـ على حد تعبير الدكتور ـ فقد لا يعدو الأمر ، عن أن يكون مجرد تصوير شاعر لموقف صعب تخلص منه ، وتجربة قاسية مر بها .

وبعد :

فلسنا بعد هذا كله ، نبرئ الشماخ من أنه تكسب ببعض شعره ، ولكنا لا نذهب إلى حد القول : بأنه كان من الحريصين على هذا التكسب ، كما أننا لا ننكر أنه غمز فى هجائه عرض مهجوه ، ولكن ذلك كان من القلة بحيث لا يصمه بالإسراع إلى نهش الأعراض ، والانطباع على الشر ، وأنه أحجم أحياناً عن الهجاء خوفاً من عقاب السلطان ، وكان الأجدر به أن يكون زاجره الخوف من الله ، وأنه اقترف إثم الحلف الكاذب ، وكان لزاماً عليه ـ كمسلم ـ ألا يقدم على ذلك مهما كان حرج موقفه ، وأنه فى هذا كله قد خالف بعض تعاليم دينه إلى حدما .

ولكنا مع ذلك لا نرتضى ، أن يكون شبيهاً بالحطيئة فى سلوكه الدينى ، فقد كان الحطيئة ـ كما يذكر الأستاذ الدكتور طه حسين ـ « يمثل الجاهلية إبان الإسلام أصدق تمثيل ، كان يمثل الجاهلية فى حريته ، وإباحته ، وانصرافه عن الدين ، إذا خلا إلى نفسه ، وتكلفه هذا الدين اتقاء للسلطان ليس غير . . » [2] .

---

(١) الديوان : القصيدة : ١٥ الأبيات : ٧ ـ ١١ ، والبيت الأخير مزيد فى الهامش عقب شرح البيت : ٨ .

(٢) فى الأدب الجاهلى : ٢٩٣ .

ويذكر أيضاً : أن الرواة « متفقون على أن سيرته لم تكن سيرة مسلم مخلص فى دينه ، متأثر بحلاوة هذا الدين ، إنما كانت سيرة الأعرابى ، الذى احتفظ بحياة البادية ، وما فيها من غلظة فى الطبع ، وجفوة فى الخلق ..»[١] إلخ ، وكيف يشبه الشماخ الحطيئة فى ذلك، والشماخ لم يعرف عنه أنه انصرف عن الدين ، فى الوقت الذى ارتد فيه قومه عن الإسلام، مع من ارتد من العرب ، عقب وفاة الرسول (ص) ، ووثبوا على من فيهم من المسلمين ، وأعملوا فيهم السيف ، على نحو ما مر بنا ، بينما كان الحطيئة ممن طاروا إلى هذا الشر طيراناً ، وفضح نفسه فى شعر يقول فيه :

أَطَعْنَا رسولَ الله إذْ كان بيننا فيالعباد الله ما لأَبى بكر
أَيُورِثُها بكرًا إذا مات بعدَه وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[٢]

بل كيف يشبهه الشماخ ، الذى ضرب — فى أواخر عمره — فى الأرض مجاهداً فى سبيل الله ، شاهراً سيفه لإعلاء كلمة الحق ، فى فتوح آذربيجان وأرمينية — كما سيأتى — حتى فاضت روحه شهيداً ، وحسبه بالشهادة كرامة ، وحسبه أن يحشر يوم الدين فى زمرة الشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً .

الشماخ والأحداث الإسلامية فى عصره :

نقصد بهذه الأحداث — هنا — تلك الوقائع الحربية ، التى خاضها الإسلام ضد أعدائه من العرب وغيرهم ، والتى كانت ترتبط ارتباطاً قويًّا بمبدإ تأمين الدعوة ، والعمل على تبليغها ونشرها .

لم تكن رسالة محمد (ص) مقصورة على الجزيرة العربية ، ومع ذلك ، فقد اقتضى التطور الطبيعى للدعوة ، أن يبدأ الرسول (ص) بدعوة قومه من العرب ؛ لتخليصهم مما كانوا يتخبطون فيه ، من عقائد فاسدة ، وأوهام باطلة ، ولتأليف قلوبهم ، وجمع شملهم حول الدين الجديد .

وقد سلك الرسول (ص) فى دعوة قومه — أول الأمر — إلى الإسلام طريقاً سلمية ، رسم الله تعالى منهجها لرسوله فى قوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ،

---

(١) المصدر السابق : ٢٩٤ .
(٢) الأغانى : ٤١/٢ .

والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين »[١] .

ولكن قريشاً ناصبته العداء ، وآذت من اتبعه ، وأخرجتهم من ديارهم مرغمين ، واستولت على أموالهم التى خلفوها فى أوطانهم .

ولم يكد الرسول يستقر فى المدينة ، حتى أخذ النزاع بين مكة — ممثلة فى قريش وحلفائها — وبين المدينة — ممثلة فى الرسول ومعه المهاجرون والأنصار — يتطور إلى الاشتباك المسلح ؛ فقد أذن الله لرسوله فى قتال هؤلاء الذين ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . . »[٢] .

وكان هذا الإذن بالقتال مقصوراً أولا على قريش . ومن يمالئهم من يهود المدينة ، ثم لما تدخلت القبائل العربية الأخرى فى هذا النزاع ، متحدة مع قريش واليهود ، وبقصد الوقوف فى سبيل الدعوة ، أمر الله رسوله والمسلمين بقتالهم جميعاً : « وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلوكم كافة »[٣] .

فكانت بين الفريقين تلك الوقائع المفصلة فى كتب المغازى والسير ، والتى انتهت — بالنسبة للجزيرة العربية — بقضاء أبى بكر على حركة المرتدين ، وردهم إلى حظيرة الإسلام .

وبقضاء أبى بكر على هذه الحركة ، أصبحت جزيرة العرب تدين بالإسلام ، واتجهت همتها التى وحدها الإسلام إلى نشر الدعوة خارج الجزيرة ، وكان الرسول — عملا بعموم رسالته — قد وجه كتبه ورسله — قبل وفاته — إلى الملوك ورؤساء الأمم خارج الجزيرة ، يدعوهم إلى اتباعه ، حتى لا يكونوا ممن يصد عن الإسلام ، أو يقف فى سبيل دعوته . إلا أن أحداً من هؤلاء الملوك لم يجب إلى الإسلام فى حياة الرسول « ولو أن أحداً من هؤلاء الملوك قبل دعوة الرسول ، ودان بالإسلام لانتشر هذا الدين بين رعاياه ، على أن التاريخ لم يذكر لنا . أن أحداً من الملوك الذين كانوا خارج

---

(١) سورة النحل : آية : ١٢٥ .
(٢) سورة الحج : الآيتين : ٣٩ — ٤٠ .
(٣) سورة التوبة : آية : ٣٦ .

الجزيرة دان بالإسلام ، وإن كان بعضهم قد أحسن معاملة رسل النبى ، وتجمل فى الرد على كتاب الرسول . . »[١] .

وبذلك ، كان الرسول قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض ، وعرف اسمه ودينه ، وعلم به الرءوس والسادات خارج الجزيرة[٢] .

عرفت الوقائع الإسلامية ، التى خاضها العرب المسلمون خارج الجزيرة ، لنشر الدعوة ، فى التاريخ الإسلامى باسم « الفتوحات الإسلامية » . وقد بدأها الخليفة الأول أبو بكر ، بعد أن فرغ من حروب الردة ، بتوجيه الجيوش لغزو العراق — حيث الفرس — والشام — حيث الروم .

ثم جاء من بعده الخليفتان : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان (رضى الله عنهما) فتوسعا فى هذه الفتوح ، وانساح المسلمون فى الجبهة العراقية : إلى بلاد فارس وما وراء النهر ، وفى الجبهة الشامية : إلى فلسطين ومصر .

وهنا نسأل : ماذا كان موقف الشماخ من هذه الأحداث الإسلامية ؟

لقد خلت أخبار الشماخ وأشعاره ، من أية إشارة إلى أى نوع من المشاركة فى هذه الأحداث ، منذ أسلم إلى أن توفى أبو بكر ، حتى إذا أظل عهد الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب ، ومن بعده عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، أخذ اسم الشماخ يتردد ، معلناً عن مشاركته فى بعض هذه الأحداث الهامة ، وهى : وقعة القادسية ، وفتوح آذربيجان وأرمينية[٣] .

وليس من مذهبنا هنا أن نتوسع فى حكاية خبر هذه الأحداث ، وأن نحيط بتفاصيل أحداثها ؛ فذلك مبسوط فى مظانه من كتب المغازى والسير ، وحسبنا أن نلم

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى : ١/١٥٩ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٤٧ .

(٣) ممن ذكر اشتراك الشماخ فى هذه الأحداث : الطبرى : ٤/٩٠ — ٩١ ، ١١٥ — ١١٦ ، ٢٥٦ — ٢٥٧ ، والبلاذرى فى أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٠٤ ، وفتوح البلدان : ٤٦٠ ، وابن حجر فى الإصابة : ٣/٢١١ ، والبغدادى فى خزانة الأدب : ١/٥٢٦ ، وشرح شواهد المغنى : ٢/٥٩٧ ، وأورد خبر اشتراك الشماخ فى هذه الأحداث من المحدثين : الزركلى فى الأعلام : ٣/٢٥٢ — ٢٥٣ ، وبروكلمان فى تاريخ الأدب العربى (ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار) ١/١٧٠ ، وعمر رضا كحالة فى معجم المؤلفين : ٤/٣٠٦ ، والبجاوى ، وأبو الفضل فى أيام العرب فى الإسلام : ٢٦٤ .

بمجمل خبرها ، توسلا لبيان دور الشماخ فى كل منها .

أما القادسية : فكانت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (سنة ١٤ هـ)[١] بين المسلمين بقيادة سعد بن أبى وقاص ، وبين الفرس بقيادة « رستم » أعظم قوادهم ، ولم تكن القادسية هى أول لقاء بين المسلمين والفرس ، فقد سبقتها معارك عديدة بينهما بقيادة « خالد بن الوليد » ثم « المثنى بن حارثة الشيبانى » نال فيها المسلمون من الفرس ، وتبحبحوا ريف فارس ، وغلبوهم على خير شقى سواد العراق[٢] ، بيد أن القادسية ، فاقت كل ما سبقها من معارك مع الفرس فى الأهمية .

ذلك أن القادسية كانت باب فارس فى الجاهلية ، وأجمع أبوابهم لمادتهم[٣] ، ثم إن انتصار المسلمين فيها على الفرس ، فتح الطريق أمامهم إلى إيوان كسرى فى عاصمة ملكه ، ومهد للقضاء على دولته[٤] .

وقد احتفل كل من الفرس والعرب بهذا اللقاء احتفالا عظيماً ، وألقى كل منهما بثقله فى المعركة .

أما الفرس : فقد نبذوا ما كان بينهم من خلاف على السلطة ، عزوا إليه ضعفهم أمام العرب ، وما أحرزه المسلمون عليهم من تقدم وانتصار ، واجتمعوا على رجل يدعى : « يزدجرد بن شهريار بن كسرى »[٥] ، وتبارى رؤساؤهم فى طاعته ومعونته .

وما إن اجتمعت كلمة الفرس على « يزدجرد » ، حتى كفر أهل السواد (وهم أهل البلاد التى كان المسلمون قد فتحوها ، حتى ذلك الحين من العراق) ونبذوا ما كانوا قد دخلوا فيه من طاعة المسلمين ، وأعقب ذلك اتفاق الفرس على تولية « رستم » أعظم قوادهم قيادة الجيش ، الذى اعتزموا توجيهه لحرب المسلمين ، والذى

---

(١) الطبرى : ٤/٨٣ ، ١١٤ ، ١١٨ ، وفى المصدر نفسه : ٤/١٤٨ « وقال الواقدى : كانت وقعة القادسية وافتتاحها (سنة ١٦ هـ) وكان بعض أهل الكوفة يقول : كانت وقعة القادسية (سنة ١٥هـ) قال : والثابت عندنا أنها كانت فى (سنة ١٤هـ) وأما محمد بن إسحاق فإنه قال : كانت (سنة١٥هـ). » وفى فتوح البلدان : ٣٥٨ أنها كانت فى آخر (سنة١٦هـ) وذكر ابن الأثير فى الكامل : ٢/١٧٣ – ١٨٨ : خبر القادسية فى أحداث (سنة ١٤ هـ) وكذا ابن شاكر فى عيون التواريخ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٩٩ .

(٣) المصدر السابق : ١/٢٠٦ .

(٤) أيام العرب فى الإسلام : ٢٧٨ .

(٥) الكامل لابن الأثير : ٢/١٧٢ .

حشدوا فيه زهاء (١٢٠ ألفاً) من الجند مزودين بثلاثين فيلا[١] .

وأما العرب : فإن عمر بن الخطاب حين بلغه أمر اجتماع كلمة الفرس ، وما يتوقعه المسلمون من انتقاض أهل السواد — الذى تم فعلا قبل أن يصل كتاب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك[٢] — وما يقوم به الفرس من استعدادات لحرب المسلمين ، لما بلغ عمر ذلك قال : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب . . »[٣] .

هب عمر يعد للأمر عدته ، مصمماً على أن يحمل العرب على الجد . إذ جد العجم ، فكتب إلى عماله على العرب ، بأن يوجهوا إليه كل من له سلاح أو فرس ، أو نجدة أو رأى ، فلم يدع رئيساً ، ولا ذا رأى ، ولا ذا شرف ، ولا ذا سلطة ، ولا خطيباً ، ولا شاعراً ، إلا رماهم به . فرماهم بوجوه الناس وغررهم[٤] .

استجابت القبائل لنداء عمر . فوافاه بالمدينة من كانت طرقه منها على مكة والمدينة ، وكذلك من كان منها على النصف ما بين المدينة والعراق ، وأما من كانوا أسفل منهم ، فانضموا إلى المثنى بن حارثة .

ثم استشار عمر الناس ، فيمن يسير على رأس الجيش إلى العراق ، فانتهى الرأى إلى اختيار سعد بن أبى وقاص أميراً على حرب العراق .

سار سعد بمن معه . ولحق به من أمده بهم عمر بعد خروجه من المدينة ، وقبل أن يبلغ القادسية . جاءه خبر وفاة المثنى بن حارثة ، ثم نزل القادسية ، وأقام بها شهراً دون أن يوجه إليه الفرس أحداً ، فأمره عمر أن يناوشهم على حدود أرضهم ، فأغار بعثه ورجع غانماً سالماً .

وكان من هذه الغارات سرية بإمارة « بكير بن عبدالله الليثى »[٥] خرجت ليلا للإغارة على الحيرة « وكان فيها الشماخ الشاعر القيسى . فى ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس »[٦] .

---

(١) فتوح البلدان : ٣٥٧ ، والكامل لابن الأثير : ٢ ١٧٧ وفى المصدر نفسه ٢/١٧٨ « وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا . . » .

(٢) انظر الكامل لابن الأثير : ٢/١٧٢ .

(٣) الطبرى : ٤ ٨٧ ، والكامل لابن الأثير : ٢/١٧٢ .

(٤) الطبرى : ٤/٨٧ ، والكامل لابن الأثير : ٢/١٧٢ .

(٥) انظر التعريف به : ص ١٥٠ — ١٥١ من هذا الكتاب .

(٦) الطبرى : ٤/٩٠ — ٩١ .

كما أن عمر أمر سعداً بأن يرسل دعاة إلى ملك الفرس ؛ ليعرضوا عليه أمر المسلمين ، ويخيروه بين الدخول فى دين الله ، أو دفع الجزية عن يد وهو صاغر ، أو الحرب ، فأبى الملك إلا الحرب ، وعنفهم وطردهم .

سار رستم بتعبئته الكبرى حتى اقترب من جيش المسلمين ، فتراسل الفريقان ، وعرض المسلمون على رستم ما عرضوه على الملك فأبى ، أو أبى عليه رجال فارس ما كان يميل إليه ، من مصالحة العرب .

تهيأ الفريقان للقتال ، فعبر الفرس الفرات إلى المسلمين ، وأخذوا مصافهم ، كما أخذ المسلمون مصافهم ، وقبل أن يأذن سعد بالقتال ، أرسل ذوى النجدة والرأى والفضل إلى الناس وفيهم من الشعراء : « الشماخ ، والحطيئة ، وأوس بن مغراء ، وعبدة ابن الطبيب »[١] وغيرهم ، وقال لهم قبل أن يرسلهم : « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم ، وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال . . »[٢] . فتواثق الناس وتعاهدوا ، ولم يلبث القتال أن نشب بين الفريقين واستمر أياماً ثلاثة ، لقى المسلمون فى اليوم الأول منها من فيلة الفرس عناء شديداً ، فقد فعلت هذه الفيلة بخيول المسلمين ، وكتائبهم الأفاعيل ، مما جعل كفة الفرس ترجح كفة المسلمين فى هذا اليوم .

وفى اليوم الثانى : وصلت طلائع مدد الشام (وهم جنود خالد بن الوليد التى أمر عمر أبا عبيدة — فى الشام — أن يصرفها إلى العراق) فقوى بها المسلمون ، كما عمد المسلمون إلى حيلة ذكية ، فقد جاءوا بالإبل ، وجللوها وبرقعوها ، حتى صار لها شكل غريب ، وأطافت بها خيولهم تحميها ، وحملوا بها على خيل العدو ، فلقى الفرس من هذه الإبل فى هذا اليوم ، أعظم مما لقى المسلمون من الفيلة فى اليوم الأول[٣] ، ومن ثم ، كانت كفة المسلمين فى هذا اليوم الثانى أرجح .

وفى اليوم الثالث : تتابع وصول مدد الشام ، حتى بلغ جميع من حضر القادسية

---

(١) الطبرى : ٤/١١٥ ، والكامل لابن الأثير : ٢/١٨١ .
(٢) الطبرى : ٤/١١٥ — ١١٦ .
(٣) الكامل لابن الأثير : ٢/١٨٣ ، والطبرى : ٤/١٢٢ .

من المسلمين — فيما يقال — بضعة وثلاثين ألفاً[١] .

وعاد خطر فيلة الفرس على خيل المسلمين فى هذا اليوم شديداً ، لولا أن تمكن بعض أهل النجدة من المسلمين من إصابة فيلين — وكانت فيلة الفرس تتبعهما — فى أعينهما ومشفريهما ، فوليا الأدبار تتبعهما الفيلة الأخرى ، مخترقة صفوف الفرس حتى أتت المدائن فى توابيتها ، وقد هلك من فيها . وكان هذا اليوم شديداً على العرب والفرس ، اتصل فيه القتال طوال الليل ، فرأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله ، وأصبح الناس محسرى لم يغمضوا ليلتهم ، وتواصى المسلمون بالصبر ، فما قام قائم الظهيرة حتى بدت بشائر النصر ، وتمكن بعض المسلمين من قتل « رستم » ، وتم النصر للمسلمين فى هذه الموقعة ، التى « لم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لا مع الفرس ، ولا مع غيرهم . . »[٢] .

وأما فتوح آذربيجان وأرمينية[٣] ، فكانت من فتوح أهل الكوفة[٤] ، فبعد هزيمة الفرس فى « نهاوند »[٥] ، وفى نفس العام (سنة ٢١ هـ) أمر عمر جيوش العراق بطلب جيوش فارس حيث كانت ، ومن ذلك : أمره جنود المسلمين بالكوفة بالمسير إلى « أصبهان وآذربيجان والرى » .

فعقد لعتبة بن فرقد ، وبكير بن عبد الله الليثى ، على آذربيجان ، وفرق بينهما ، وأمر أحدهما أن يأخذ إليها من حلوان ، والآخر من الموصل .

وفى رواية سيف بن عمر : كان ذلك من فعل عمر سنة (١٨هـ)[٦] .

وروى البلاذرى : أن المغيرة بن شعبة قدم الكوفة والياً من قبل عمر (سنة ٢١هـ) ، ومعه كتاب إلى حذيفة بن اليمان بولاية آذربيجان ، فأنفذه إليه وهو بنهاوند أو بقربها ،

---

(١) الطبرى : ٤/٨٧ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/٢١١ .

(٣) آذربيجان : إقليم واسع فى الشمال الغربى من بلاد فارس ، من مشهور مدنه « تبريز » ، وهى صقع جليل ، الغالب عليه الجبال . (انظر : معجم البلدان : ١/١٦٠ — ١٦١) . وأما أرمينية : فهى من بلاد فارس ، بين طبرستان وخراسان ، جنوب قزوين .

(٤) الطبرى : ٤/٢٦٠ . وقد تحول سعد بن أبى وقاص إلى الكوفة ، بعد فتح المدائن سنة ١٦ هـ واختطها فى المحرم سنة ١٧ هـ ، وقيل : فى أواخر سنة ١٧ هـ ، وقيل : حين دخلت سنة ١٨ هـ فى أول السنة (انظر الطبرى : ٤/١٨٨ — ١٩٠) .

(٥) مدينة عظيمة جنوب همذان ، بينهما ثلاثة أيام ، وهى أقدم مدينة فى الجبل .

(٦) راجع الطبرى : ٤/٢٢١ ، ٢٤٦ .

فسار حتى أتى آذربيجان وبها مرزبانها ، وإليه جباية خراجها ، وكان المرزبان قد جمع إليه المقاتلة ، فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً أياماً ، ثم إن المرزبان صالح حذيفة عن جميع أهل آذربيجان . . ثم غزا حذيفة (موقان وجيلان)[١] فأوقع بهم وصالحهم على إتاوة ، ثم عزل عمر حذيفة ، وولى عتبة بن فرقد السلمى ، فأتاها من الموصل ، فلما دخلها وجد أهلها على العهد ، وانتقضت نواح فغزاها فظفر وغنم[٢] . .

ويقال : إن فتح آذربيجان كان على يد « نعيم بن مقرن » سنة ٢٢ هـ[٣] .

وروى ابن الكلبى عن أبى مخنف : أن المغيرة بن شعبة غزا آذربيجان (سنة ٢٠ هـ) ففتحها[٤] . .

والخلاف فى تاريخ وأمير أول فتح لآذربيجان كثير ، والحديث فيه يطول ، وحسبنا أن نذكر هنا أن « بكير بن عبد الله الليثى » كان من قواد هذا الفتح ، وأنه استأذن عمر فى التقدم من آذربيجان ، فأذن له بأن يتقدم نحو « الباب »[٥] ، ثم وجه عمرُ « سراقة بن عمرو » إلى الباب ، وأمره أن يؤمر بكيراً على إحدى مجنبتيه ، فقدم سراقة على بكير وهو بإزاء الباب ، فأمره على إحد مجنبتيه ، ودخل بلاد الباب ، ثم إن ملكها طلب الأمان ، فأمنه سراقة ، فأتاه واتفقا على كتابة كتاب بينهم ، فكتب له سراقة بالأمان ، وشرط ، وشهد عليه : عبد الرحمن بن ربيعة ، وسلمان بن ربيعة ، وبكير بن عبد الله الليثى ، ووجه سراقة بعد ذلك بكير ابن عبد الله وآخرين ، إلى أهل الجبال المحيطة بأرمينية ، ثم توفى سراقة ، واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ، وقد مضى أولئك القواد الذين بعثهم سراقة ، فلم يفتح أحد منهم ما وجه إليه إلا بكير ، فإنه فض (موقان) ، ثم تراجعوا على الجزية ، فكتب لهم كتاباً شهد عليه : الشماخ بن ضرار ، والرُّسارس بن جنادب ، وحَمَلّة بن جؤيه ، وجاء فى آخر هذا الكتاب « كتب سنة ٢١ هـ »[٦] .

---

(١) ولايتان بأرمينية من بلاد فارس ، وقال ياقوت (فى معجم البلدان فى رسم : موقان) : « ولاية فيها قرى ومروج كثيرة ، تحتلها التركمان للرعى ، وأكثر أهلها منهم » .

(٢) فتوح البلدان : ٤٥٥ – ٤٥٦ .

(٣) عيون التواريخ : ٢/أحداث سنة ٢٢ هـ .

(٤) فتوح البلدان : ٤٥٦ .

(٥) من بلاد أرمينية .

(٦) الطبرى : ٤/٢٥٦ – ٢٥٧ .

وتوفى عمر ، وعقبة بن فرقد أمير على آذربيجان ، ولكن أقدام العرب لم تتوطد فى هذه البلاد ، التى لم تلبث أن نبذت طاعة المسلمين، وعهدهم ، زمن عثمان الذى عملى على فتحها من جديد .

فيروى أن عثمان بن عفان استعمل الوليد بن عقبة بن أبى معيط على الكوفة ، فعزل الوليد عقبة بن فرقد عن آذربيجان ، فنقضوا ، فغزاهم الوليد (سنة ٢٥ هـ) وعلى مقدمته عبد الله بن شبل الأحمسى ، فأغار على أهل موقان وغيرهم ، فغنم وسبى ، وطلب أهل كور آذربيجان الصلح فصالحهم . على صلح حذيفة بن اليمان[١] .

كما سير الوليد « سلمان بن ربيعة الباهلى » إلى أرمينية ، فأوقع بمن أراد نقض الطاعة منهم وشتت شملهم[٢] .

ويقال : إن غزو الوليد بن عقبة السابق لآذربيجان وأرمينية كان (سنة ٢٤ هـ)، وهى رواية أبى مخنف ، وفى رواية الواقدى : أن ذلك كان (سنة ٢٦ هـ)[٣] ، والخلاف فى تاريخ هذه الغزوة ، مترتب على الخلاف فى تاريخ عزل المغيرة بن شعبة عن إمارة الكوفة ، ورد سعد بن أبى وقاص إليها ، ثم عزله وتولية الوليد[٤] .

ثم عزل عثمان الوليد بن عقبة ، وولى سعيد بن العاص الكوفة (سنة ٣٠ هـ أو سنة ٢٩ هـ)[٥] ، فغزا سعيد آذربيجان فأوقع بأهل موقان وجيلان ، وتجمع له خلق من الأرمن وأهل آذربيجان ، فوجه إليهم جرير بن عبد الله البجلى فهزمهم .

ويقال : إن الشماخ بن ضرار كان مع سعيد بن العاص فى هذه الغزاة ، وأيضاً : بكير بن عبد الله الليثى ، الذى يقال : إنه أصيب فى غزوة موقان هذه (سنة ٣٠ هـ)[٦] .

---

(١) فتوح البلدان : ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ٢/٢٧ .

(٣) الطبرى : ٥/٤٥ .

(٤) انظر فى هذا الخلاف : تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) : ٢/١٢٧ . وعيون التواريخ : ٢/أحداث سنة ٢٦ هـ . والطبرى : ٤/٥٠، ٥/٤٤ — ٤٨، وفتوح البلدان : ٤٥٦ .

(٥) انظر فى تاريخ تولية سعيد الكوفة : فتوح البلدان : ٤٦٧ ، والطبرى : ٥/٥٨ ، والبداية والنهاية : ٧/١٥٥، وتاريخ ابن خلدون : ٢/١٣٤ ،وعيون التواريخ : ٢/أحداث سنة ٣٠هـ . والإصابة : ٣/٢١١ . وقد عزل سعيد عن الكوفة سنة ٣٤ هـ .

(٦) فتوح البلدان : ٤٥٩ — ٤٦٠ ، وأنساب الأشراف : ١٠لوحة ٦٩٩ ، ١٢/ لوحة ١١٠٤ ، وشرح شواهد المغنى للبغدادى : ٢/٥٩٥ .

وبعد غزوة سعيد هذه تنقطع أخبار الشماخ ، فلا نعثر له على ذكر فيما وليها من أحداث .

وهكذا نرى أن اسم الشماخ كان مقترناً باسم بكير بن عبد الله الليثى فى فتوح آذربيجان وأرمينية . وأغلب الظن ، أن الشماخ لم يعد إلى ديار قومه بنجد بعد القادسية ، وأنه نزل الكوفة مع من نزلها من غطفان[١] ، مع سعد بن أبى وقاص ، ومنها كان يخرج مع بكير للغزو فى آذربيجان وأرمينية ، على ما تقدم .

هذا موجز للأحداث الإسلامية ، التى أسهم فيها الشماخ ، مجاهداً فى سبيل نشر الدعوة ، وإعزاز دين الله .

بقى أن نتساءل ، عن صدى هذه الأحداث فى شعره ؟

أما القادسية ، فقد مر بنا أن عمر بن الخطاب حشد فيها جملة طيبة من الشعراء ، روت كتب المغازى والسير أشعاراً لبعضهم فى المعركة[٢] ، ولم نعثر للشماخ على شعر فيها ، ولولا قوله — فى أبياته التى يرثى فيها بكير بن عبد الله :

وذكَّرَنى أهلَ القَوَادِسِ أنَّنى رأيتُ رجالًا واجمين بأَجمال[٣]

لولا هذا البيت ، لخلا شعر الشماخ الذى بين أيدينا ، من أية إشارة إلى موقعة القادسية التى شهدها .

وأما فتوح آذربيجان وأرمينية ، فليس لدينا للشماخ شعر فيها ، إلا أبياتاً قالها ضمن رثائه لبكير بن عبد الله . وذلك قوله :

لعَمْرى لا أَنْسى وإن طالَ عهدُنا لقاءَ ابنة الضَّمْرىِّ فى البلد الخالى
تذكرتُها وهْناً وقد حال دونها قُرَى أَذْرَبِيجان : المسالحُ والجَالى
أَلا يا اصْبَحانى قبل غَارة سِنْجَال[٤] وقبل منايا باكراتٍ وآجال

---

(١) انظر : الطبرى : ٤/١٩٤ .
(٢) انظر مثلا : الطبرى : ٤/١١٩ ، ١٢٣ — ١٢٤ ، وفتوح البلدان : ٣٦٣ — ٣٦٥ .
(٣) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ : البيت : ١٢ . وانظر شرح البيت فى هامشه .
(٤) سنجال : بكسر السين : قرية بأرمينية . وقيل : بآذربيجان (انظر : معجم البلدان : ٥/١٤٦ ، والجبال والأمكنة والمياه : ٨٧) .

وقبل اختلاف القوم من بين سالبٍ　　وآخر مسلوبٍ هَوَى بين أَبْطال
وقد علمتْ خَيْلٌ بِمُوقَانَ أنني　　أنا الفارسُ الحامى لدى الموت نَزّال [١]

وهذا الشعر الذى يشير إلى اشتراك الشماخ فى هذه الأحداث ، لا يتناسب — كمًّا وكيفاً — مع قيمتها . وما خاضه الشماخ خلالها من تجارب ، وما وقع عليه بصره أثناءها من مشاهد ، فأهوال القادسية وبطولاتها ، وما أحرزه المسلمون فيها من نصر عظيم على الفرس ، مع تفوقهم فى العدد والعدة ، وكذلك مشاهد بلاد آذربيجان وأرمينية ، التى كان الشماخ يراها لأول مرة ، وصور المعارك التى خاضها فيهما . كل ذلك كان جديراً بأن يحرك شاعرية الشماخ ، فتفيض بأكثر من هذا الذى بين أيدينا .

قد يقال : ربما كان للشماخ شعر آخر ، أو أشعار تتصل بهذا الموضوع ، عدا عليها الزمن فيما عدا . ولكنه افتراض على أية حال يعوزنا ما يرجحه .

على أنه من الجائز أيضاً ، أن تكون هذه الأبيات التى بين أيدينا ، هى كل ما جادت به قريحة الشماخ ، فيما يتصل بهذه الأحداث ، وأن مواهبه لم تكن تؤهله لهذا النوع من الشعر ، كما أسلفنا [٢] .

اتصال الشماخ برجال عصره :

أولا : اتصاله بمعاصريه من الشعراء :

اتصل الشماخ ببعض معاصريه من الشعراء غير البارزين ، ومعظمهم من شعراء قومه بنى ثعلبة . وقد اصطبغت صلته بهم بالعداء غالباً .

اتصل من شعراء قومه : بالجليح بن شميذ ، وجندب بن عمرو ، وجبل ابن جوال ، ومن شعراء غيرهم : بالربيع بن علباء السلمى .

١ — الشماخ والجُلَيح بن شُمَيذ [٣] :

أما من يكون الجليح هذا ، فلا نعرف عنه إلا ما ذكره راوى أراجيز الديوان ، فى الخبر الذى قدم به لهذه الأراجيز ، من أنه أحد بنى ثعلبة ، وأنه كان مع الشماخ

(١) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ الأبيات : ١ — ٤ ثم البيت : ٩ .
(٢) راجع : ص ١١٣ من هذا الكتاب .
(٣) انظر الخلاف حول اسمه فى الهامش الخامس ، فى التعليق على مقدمة أراجيز الديوان .

ونفر من بنى ثعلبة ، حين أقبلوا من مصر، وأنه انتصر لجندب بن عمرو ، الذى كان يرافقهم أيضاً ، والذى كان الشماخ وأصحابه يبغضونه ، لأنه كان يتحدث إلى امرأة الشماخ[١] ، فعرَّض بالشماخ فى رجز له ، مروى ضمن أراجيز الديوان[٢] ، وقد رد عليه « جبار بن جزء بن ضرار » فى رجز له يشيد فيه بعمه الشماخ ، ويعرض بالجليح أو بجندب الذى ينتصر له[٣] ، كما أجابه الشماخ ممتدحاً نفسه بالحذق والمهارة فى قيادة الركب ، مبيناً أن هذا الهجاء لا ينال من قدره ؛ إذ « لا يضر البر ما قال الناس »[٤] .

والذى يظهر أن الهجاء كان متصلا بين الشماخ وبين الجليح هذا ، يدل لذلك ما روى من قول الجليح يهجو الشماخ :

أَشماخُ لا تَمْرَحْ بعِرضك واقتصد فأَنت امرؤٌ زنداك للمتقادح[٥]

ويذكر ابن حجر أن المرزبانى روى « مهاجاة له [أى للشماخ] مع الجليح ابن سعيد الثعلبى ، وهما يسيران مع مروان بن الحكم ، وهو حينئذ أمير المدينة »[٦] ولم يرو ابن حجر سبب هذه المهاجاة ولاشيئاً مما قيل فيها ، كما أنا لم نعثر على شىء منها فى المصادر الأخرى .

أما ما يذكره الخبر ، من أنهما كانا يسيران مع مروان بن الحكم حين كان أمير المدينة ، فسوف نناقشه عند الكلام على وفاة الشماخ .

ويظهر كذلك أنه كان للشماخ هجاء فى الجليح ، ولكنه لم يصل إلينا ؛ كما خلت المصادر من ذكر سبب اتصال الهجاء بينهما .

---

(١) انظر : مقدمة الراوى لأراجيز الديوان .

(٢) انظر : أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٣ : الأبيات : ٢٠ — ٣٨ .

(٣) انظر : أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٤ .

(٤) انظر : أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٥ الأبيات : ٥ — ٩ .

(٥) اللسان والتاج (قدح) ، وأساس البلاغة : ٢/٣٧٦ ، والمحكم : ٢/٣٩٧ ، قال ابن سيده فى شرح البيت : « أى لا حسب لك ، ولا نسب يصح معناه : فأنت مثل زند من شجر متقادح : أى رخو العيدان ، ضعيفها إذا حركته الريح حك بعضه بعضا ، فالتهب ناراً ، فإذا قدح به لمنفعة لم يور شيئا » . وقال الزمخشرى فى شرحه فى الأساس : « أى فيك للطاعن مقال ، ومن أراد أن يقع فيك قدر » .

(٦) الإصابة : ٣/٢١١ . ويفهم من كلام ابن حجر أن المرزبانى ، روى هذه المهاجاة فى « الموشح » ، ولكننا لم نعثر عليها فيه ، وأغلب الظن ، أن هذه المهاجاة وخبرها رواهما المرزبانى فى « معجم الشعراء » . فى ترجمته للشماخ المفقودة مع ما فقد من معجم الشعراء الذى بين أيدينا الآن .

٢ – الشماخ وجُندب بن عمرو :

وجندب هذا – كسابقه – مجهول ، وقد انفرد بذكر بعض ما كان بينه وبين الشماخ راوى أراجيز الديوان ، ومن مقدمته لهذه الأراجيز ، نعرف أن جندب ابن عمرو ، كان أحد النفر من بنى ثعلبة الذين أقبلوا مع الشماخ من مصر ، وأنه كان يتحدث إلى امرأة الشماخ ، ولذا كان الشماخ وأصحابه يبغضونه ، فأغرى به الشماخ ابن أخيه (جبّار بن جزء) فنزل يحدو الركب برجز عرض فيه بامرأة جندب[١] ، فرد جندب برجز عرض فيه بامرأة الشماخ[٢] ، فغضب الشماخ حين عرض جندب بامرأته ، وكانت أم صبى ، فنزل فساق بالقوم ، وراح يعرض بامرأة جندب ، متغزلا فيها[٣] .

وهذا الذى ذكره راوى أراجيز الديوان ، هو كل ما نعرف عما كان بين الشماخ وبين جندب هذا .

٣ – الشماخ وجبل بن جوال :

جبل بن جوال : هو أحد بنى عبد غنم بن حجاش بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وهو شاعر مخضرم . قيل : له صحبة ، وقد ترجم له ابن حجر ، وقال : «قال المرزبانى فى معجم الشعراء : كان يهوديًا فأسلم» ، وقيل : إنه رثى حيي بن أخطب اليهودى يوم بنى قريظة[٤] .

وقد مر بنا أن الشماخ كان يهوى أخته «كلبة بنت جوال» ، وكان يقول فيها الشعر ، وأنه خطبها فأجابته ، وهمت أن تتزوجه ، لولا أن الشماخ سافر فى أمر له ، فتزوجها أخوه جزء فى غيابه[٥] .

---

(١) انظر : أراجيز الديوان : الأرجوزة : ١٩ .

(٢) انظر : الأرجوزة : ٢٠ من أراجيز الديوان .

(٣) انظر : الأرجوزة : ٢٢ من أراجيز الديوان .

(٤) انظر هذا الخبر وما يتضمنه من شعر لجبل فى رثاء حيى بن أخطب فى: الإصابة : ١/٢٣٢ ، والاستيعاب : ١/١٠٠ ، وأسد الغابة : ١/٢٦٧ ، وأنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٦ ، ولجبل خبر وشعر فى سيرة ابن هشام : ٢/١٩٨ ، ٢٠٩ .

(٥) راجع : ص١٠٠ من هذا الكتاب .

فإذا أضفنا إلى ذلك ، ما روى دران المزرد بن ضرار ، من أنه كان بين بنى جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة — بيت الشماخ — وبنى رزام بن ثعلبة ، قتال فأعانت بنو حشْورة — بطن من ثعلبة — بنى رزام على بنى جحاش ، فقال جبل بن جوال :

عَذيرِى رِزَام إن بغتْ وتناصرتْ ولكن عذيرًا ما عَذِيرُك حَشْوَرا
أَحَشْوَرَ عُوذِى بالعزيز فإنَّما يعوذ الذليلُ بالعزيز لِيُنْصَرا
أَحَشْوَرَ غُضُّوا طرفكم وتقَنَّعوا على كل ماءٍ لا تخافرن خُضَّرا

فعاتبه شماخ ومزود فى هجائه ، فقال جبل بن جوال :

لعمرى لعل الخير لو تعلمانه بمن علينا مَعْقلٌ ويَزِيدُ
مَنِيحةَ عَنْزٍ أو عطاءَ فطِيمة ألا إن فضل الثّعلبىّ زَهيد[1]

كان ذلك هو كل ما نعرف من صلة بين الشاعرين .

٤ — الشماخ والربيع بن علباء السلمى[2] :

الربيع بن علباء السلمى ثالث الثلاثة المجاهيل ، الذين اتصل بهم الشماخ اتصال عداوة ، وقد هجاه الشماخ فى قصيدة مروية فى الديوان ، ومنها قوله :

نُبِّئْتُ أن رَبيعاً أنْ رعى إبلاً يُهْدِى إلىَّ خَنَاهُ ثَانِىَ الجيد
فإن كرهتَ هجائى فاجتنب سَخَطِى لا يدركنك تَفْريعى وتَصْعيدى
وإن أبيتَ فإنى واضعٌ قدمى على مَرَاغِم نَفّاخ اللّغَادِيد[3]

والظاهر أن هذا الهجاء كان ردًّا على هجاء سابق من الربيع للشماخ — لم نقف عليه — يدل على ذلك قول الشماخ السابق ، وقوله — فى نفس القصيدة — مخاطباً قوم الربيع :

---

(١) ديوان مزرد : ٦٩ . ومعقل : هو الشماخ ، ويزيد : هو مزرد .
(٢) انظر كلامنا عليه ، وسبب ما كان بينه وبين الشماخ من هجاء فى تعليقنا على عنوان القصيدة : ٤ بهامش الديوان
(٣) الديوان : القصيدة : ٤ الأبيات : ٩ — ١١ .

إن كنتمُ لستمُ ناهين شاعركم ولا تناهوْن عن شتمى وتهديدى
فاجروا الرِّهانَ فإنى ما بقيت لكم غَمْرُ البديهة عدَّاءُ القراديد[١]

هذا : وما نعرف أنه كان للشماخ من صلة بمعاصريه من الشعراء غير هؤلاء الذين ذكرنا .

من هذا نرى ، أن الشماخ لم يتصل بشعراء عصره من فحول المخضرمين ، أمثال : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وحسان بن ثابت . وغيرهم .

ولسنا نعرف علة لذلك، إلا أن تكون هذه العلة راجعة إلى ماسبق أن أشرنا إليه، من انطواء الشماخ على نفسه ، وانشغاله بأمر معاشه ، وبعده — إلى حد ما — عن المشاركة فى الحياة العامة ، وما نلمسه فى شعره من عدم الميل إلى الشر ، أو المبادأة بالعدوان ، على العكس من أخيه المزرد الذى أدى ميله للشر ، وسلاطة لسانه إلى الاحتكاك بكعب بن زهير ، والحطيئة ، فطار الهجاء بينه وبين الأول[٢] ، ولم يمنع الثانى من هجائه إلا أن أم مزرد جاءته ، واعتذرت له عن هجائه ، ورجته ألا يرد عليه[٣] .

أما ما رواه أبو الفرج ، بسنده عن الأصمعى ، من أن مزرداً قال لأمه : « كان كعب بن زهير لا يهابنى وهو اليوم يهابنى ، فقالت : يا بنى : نعم إنه يرى جرو الهراش موثقاً ببابك تعنى أخاه الشماخ »[٤] .

وما رواه أبو الفرج أيضاً بسنده عن ابن الأعرابى . عن المفضل الضبى ، من أن أم مزرد قالت له وللشماخ : « عرضتمانى لشعراء العرب : الحطيئة . وكعب بن زهير ، فقال : كلا لا تخافى ، قالت فما يؤمنى ؟ قالا : إنك ربطت بباب بيتك جرو هراش ، لا يجترئ أحد عليهما يعنيان أنفسهما »[٥] . مما يوهم هجاء الشماخ لكعب والحطيئة ، فلا دليل عليه فى شعر الشماخ الذى بين أيدينا ، فلو أن الشماخ كان

---

(١) القصيدة السابقة : البيتين : ٢١ — ٢٢ .

(٢) انظر فى اتصال الهجاء بين مزرد وكعب : شرح ديوان كعب « صنعة السكرى » : ٦١ وما بعدها ، وانظر : ديوان مزرد : ٢٧ وما بعدها ، والقطعة رقم : ١٢ فى ملحق ديوان مزرد .

(٣) انظر : أنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٦ .

(٤) الأغانى : ٩٩/٨ .

(٥) الأغانى : ٩٩/٨ .

هجا أحداً منهما لروى ذلك ، أو شيئاً منه ، كما روى شعر مزرد فى هجاء كل منهما ، كما سبق .

على أن رواية أبى الفرج الأولى ، قد لا تعنى أكثر من أن كعب بن زهير كان يحسب حساب الشماخ ، ولا يريد أن يصطدم به فى معركة هجائية .

وأما الرواية الثانية ، فأغلب الظن أن المقصود بها ما فعله مزرد من هجاء كعب والحطيئة ، وخوف الأم من أن يدفع ذلك كلاً من كعب والحطيئة إلى أن يردا على هذا الهجاء بما ينالان فيه منها ، بدليل ما رواه أبو سعيد السكرى : من أن كعباً لما هجاه مزرد عضه فى شعره ، وعرض بأمه ، فرماه وأخويه (الشماخ ومزرد) بأنهم أبناء سفاح ، وأن أمهم جاءت بهم من ابن عم لها كانوا يشبهونه ، وأن أمهم لما سمعت ذلك قالت : ما كنتم لتنتهوا حتى تجروا على بعض ما أكره ، وبكت إلى مزرد ، وناشدته الله لما أعرض عن كعب[1] . فالمفهوم من رواية السكرى هذه أن الذى عرض الأم للهجاء هو مزرد .

وأخيراً فقد نسب إلى « جميل بن عبد الله بن معمر » أنه هجا الشماخ ، ففى ديوانه (طبعة بيروت) قطعة من أبيات ثلاثة هذا نصها مع نسبتها :

« قال يهجو الشماخ بن ضرار الغطفانى الشاعر :

أَبوك حُبابٌ سارق الضيف بُردَه ... وجدِّى يا شمَّاخُ فارس شَمَّرا

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن ... لآباء سوء يُكفهم حيث سُيرا

فإن تغضبوا من قسمة الله فيكم ... فلَلَّهُ إذْ لم يرضكم كان أبصرا »[2]

والذى نذهب إليه ، أن جميلا لم يهج الشماخ ، ولم يتصل به ، وسندنا فى ذلك ما يلى :

أولا : أن البيت الأول روى بروايتين أخريين . فروى :

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير : ٦٦ ، وانظر أيضا : ص ٨٦ من هذا الكتاب .

(٢) ديوان جميل (طبعة بيروت سنة ١٩٦١) قال فى هامشه : « شمر : فرس جد جميل اشتهر بها ، والأبيات فى : العقد الفريد : ٣٩٨/٣ . برواية « ياشماخ » أيضا . إلا أن نسبتها فيه هكذا « ومن أخبث الهجاء قول جميل . . . » (الأبيات) .

أبوك حباب سارق الضيف برده وجدى يا حجّاج فارس شمرا[١]

وهذه هى الرواية الشائعة فى كثير من المصادر . وروى أيضاً :

. . . . . وجدى يا عبّاس فارس شمرا[٢]

ثانياً : أننا لم نجد أحداً من آباء الشماخ يدعى « حبابا » .

ثالثاً : ليس فى أخبار الشماخ أو أشعاره ما يشير إلى اتصاله بجميل بن معمر .

رابعاً : أن جميل بن معمر متأخر عن الشماخ ، فقد توفى سنة ٨٠هـ أو سنة ٨٢هـ .

خامساً : وبناء على ما ذكرنا . فنحن نرجح أن رواية « يا شماخ » تحريف « يا حجاج » . وأن جملة « قال يهجو الشماخ بن ضرار الغطفانى الشاعر » من تصرف الناشر ، استظهرها من رواية « يا شماخ » التى رجحنا أنها محرفة .

ثانياً : اتصاله بمعاصريه من غير الشعراء :

لسنا نعرف للشماخ من صلة بأحد من رجال عصره إلا بأربعة : عرابة بن أوس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ويزيد بن مربع الأنصارى ، وبكير بن عبدالله الليثى .

وقد تفاوتت صلته بهؤلاء قوة وضعفاً على نحو ما يأتى :

١ — اتصاله : بعرابة بن أوس :

عرابة بن أوس بن قيظى بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة بن الحارث ، من بنى مالك بن الأوس[٣] ، وكان من سادات قومه فى الإسلام ، كريماً جواداً ، ذكره ابن حبيب فيمن ذكر من أجواد الإسلام[٤] .

---

(١) التاج (شمر) ، وديوان جميل (تحقيق حسين نصار — طبعة دار مصر للطباعة) : ١١٢ وانظر هامشه ، والتكملة : ٣ ٢٥ ب ، وديوان الحماسة لأبى تمام : ١/١١٤ ، وشرحه للتبريزى : ١/١٦٥ ، وللمرزوقى : ١/٣١٥ ، وشروح سقط الزند : ٤/١٧٩٧ .

(٢) اللسان (شمر) .

(٣) انظر نسبه كاملا إلى الأزد فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٣٢١ .

(٤) المحبر : ١٥٥ .

ويقال : إن معاوية بن أبي سفيان سأله : بم سدت قومك ؟ فقال : لست بسيدهم ، ولكني رجل منهم ، فعزم عليه فقال : أعطيت في نائبتهم ، وحلمت عن سفيههم ، وشددت على يد حليمهم ، فمن فعل منهم مثل فعلي فهو مثلي ، ومن قصر عنه ، فأنا أفضل منه ، ومن تجاوزه فهو أفضل مني [١] .

وفي جوده ، يروى الرواة كثيراً من القصص ، التي تدل على أنه بلغ فيه الغاية ، من ذلك ما رواه ابن حبيب : من أن عرابة أملق في آخر حياته ، وكف بصره ، فأتاه رجل ، فقال له : قطع بي ، فلا راحلة لي ، ولا نفقة معي ، وكان عرابة متوكئاً على عبدين له أسودين يريد المسجد ، فقال للرجل : ويحك : أتيتني وقد أملقت ، وما أملك على وجه الأرض غير هذين العبدين ، فخذهما ، فاشتر بثمن أحدهما راحلة ، والآخر يكون ثمنه نفقتك ، فقال السائل : ما كنت لأسلبك جناحيك ، فقال عرابة : هما حران إن لم تقبلهما ، فإن شئت فخذ وإن شئت فاعتق [٢] .

وقصة اتصال الشماخ به ومدحه إياه ، هي الأخرى آية من آيات جوده .

فيروى : أن عرابة أقبل من الطائف ، ومعه أبعرة عليها زبيب ، وأدم ، وغير ذلك ، فمر له الشماخ ، فقال له : أعطني مما على أبعرتك من الزبيب ، فقال له : خذ برأس القطار ، قال الشماخ : أتهزأ بي عافاك الله ؟ قال : الأبعرة وما عليها لك عافاك الله ، فأخذ الإبل وما عليها ، فمدحه الشماخ بقصيدته التي أولها :

كلا يومي طُوالَةَ وصْلُ أَرْوَى ظَنُون آن مُطَّرَحُ الظنون [٣]

والتي يقول فيها :

رأيت عَرَابةَ الأَوْسيَّ يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
أفادَ محامِدًا وأفاد مجْدا فليس كجامدٍ لحِزٍ كنين
إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ تلقَّاها عَرَابة باليمين [٤]

---

(١) الكامل للمبرد : ١/٨٨ ، وانظر أيضاً : الأغاني : ٨/١٠٢ ، وبلوغ الأرب للألوسي : ٢/١٨٧ — ١٨٨ .

(٢) المحبر : ١٥٥ ، وانظر أيضا : المستطرف : ١/١٤٤ .

(٣) أنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٤ ، ١/٢٧٧ (مطبوع) ، وانظر أيضاً الشعر والشعراء : ١/٢٧٨ ، والكامل للمبرد : ١/٨٨ ، والأغاني : ٨/١٠٢ .

(٤) الديوان : القصيدة : ١٨ الأبيات : ٢٣ — ٢٥ .

وقد ترجم له ابن عبد البر فى الصحابة[١]، كما ذكره ابن قتيبة ضمن من ذكر من مشهورى الصحابة[٢] وذكره السهيلى ، وقال : «كان سيداً، ولا صحبة له، وقد قيل : له صحبة .. »[٣].

ويقال : إن الرسول (ص) استصغره يوم أحد فرده ، وكانت سنه يومئذ أربع عشرة سنة وخمسة أشهر ، ثم أجازه الرسول فى يوم الخندق[٤] مما يشهد بأن له صحبة .

ويروى : أن أباه أوس بن قيظى كان من كبار المنافقين ، وأنه أحد القائلين : إن بيوتنا عورة، يوم الخندق[٥]. وقد ترجم له ابن حجر فى القسم الأول من الصحابة : وهم الذين ثبتت صحبتهم للرسول بالرواية[٦]، كما يروى أنه شهد أحداً مع الرسول، وعده البلاذرى ممن ولى يومئذ[٧].

كذلك كان عم عرابة « مربع بن قيظى» منافقاً ، وهو الذى حثا التراب فى وجه الرسول لما خرج إلى أحد وقد مر فى حائطه ، فضربه « سعد بن زيد الأشهلى » بقوسه فشجه ، واستأذن الرسول فى قتله فأبى ، وقال : دعوه ، فإنه أعمى القلب ، أعمى البصر ، فقال أخوه أوس بن قيظى (أبو عرابة): لا والله ، ولكنها عداوتكم يا بنى عبد الأشهل ، فقال الرسول (ص) : لا والله ، ولكنه نفاقكم يا بنى قيظى[٨]..

ولعل هذا الذى ذكرنا من نفاق أبيه وعمه، هو ما دفع عرابة إلى الإسراف فى

---

(١) الاستيعاب : ٢/٥٢٨ — ٥٢٩ ، وانظر أيضاً : الإصابة : ٤/٢٣٣ ، وأسد الغابة: ١/١٤٨ ، والأغانى : ٨/١٠٢ .

(٢) المعارف : ١١٢ .

(٣) الروض الأنف : ٢/١٩٠ .

(٤) راجع : طبقات ابن سعد (طبعة بيروت) ٤/٣٦٩ — ٣٧٠ ، وانظر أيضا : عيون الأثر ٢/٧ ، والمعارف : ١١٢ ، والسيرة الحلبية : ١٢/٢٣٢ ، وأنساب الأشراف : (مطبوع) ١/٣١٦ والطبرى : ٣/١٢ ، والأغانى : ٨/١٠٢ .

(٥) الاستيعاب : ٢/٥٢٩ ، والإصابة ١/ ٨٨ ، وانظر أيضا : المحبر : ٤٦٩ ، وأسد الغابة ٣/٣٩٨ .

(٦) الإصابة : ١/٨٨ ، وانظر أيضا : أسد الغابة : ١/١٤٨ .

(٧) أنساب الأشراف (مطبوع) : ١/٣٢٦ .

(٨) الأغانى : ٨/١٠٢، وانظر أيضا : أنساب الأشراف (مطبوع) ١/٢٧٧ .

العطاء لكى ينسى الناس نفاق أبيه ، ويحفظوا ما يقال فيه من مدائح بارعة[١]. كمدائح الشماخ .

وقد ذكرنا منذ قليل ما رواه الرواة فى سبب اتصال الشماخ بعرابة ، كما أشرنا من قبل إلى أن عرابة كانت له يد أخرى على الشماخ غير العطاء [٢].

ومن ثم، كانت صلة الشماخ بعرابة أقوى من أية صلة كانت بينه وبين غيره، ممن اتصل بهم من رجال عصره ، ففى عرابة قال الشماخ أكثر مديحه وأجوده ، كما كان مدح الشماخ له سبباً فى ارتفاعه ، وذيوع صيته .

٢ ــ اتصاله بعبد الله بن جعفر :

عبد الله بن جعفر بن أبى طالب القرشى الهاشمى، أول مولود ولد فى الإسلام بأرض الحبشة ، قدم مع أبيه المدينة ،وحفظ عن رسول الله (ص) ، وروى عنه وعن عمه على بن أبى طالب وغيره من كبار الصحابة[٣] .

وقد ترجم له ابن عبد البر وابن حجر فى الصحابة[٤] ، ورجح بعضهم أنه توفى (سنة ٨٠ هـ) وهو ابن تسعين سنة[٥] .

ويعد عبد الله بن جعفر أحد أجواد الحجاز الثلاثة وهم : عبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص[٦] .

وكان يقال له : « بحر الجود ، ويقال : إنه لم يكن فى الإسلام أسخى منه »[٧] .

وأخبار جوده مستفيضة فى المصادر المختلفة [٨] .

من ذلك ما رواه المبرد من « أن الحسن والحسين عليهما السلام لاما عبدالله

---

(١) وهذا هو رأى أستاذنا الدكتور الكفراوى فى : تاريخ الشعر العربى : ٦١/١ .

(٢) راجع : ص ١٢٠–١٢١ من هذا الكتاب .

(٣) الإصابة : ٤٨/٤ .

(٤) الاستيعاب : ٣٥٤/١ ، والإصابة : ٤٨/٤ ، وانظر أيضا : أسد الغابة: ١٣٣/٣ .

(٥) انظر : الاستيعاب : ٣٥٤/١ .

(٦) انظر : العقد الفريد : ١٤٨/١، وذيل الأمالى : ٢٠ .

(٧) الاستيعاب : ٣٥٤/١ .

(٨) راجع فى أخبار جوده : العقد الفريد : ١٥٠/١ ، والأغانى : ٦٥١/١ وما بعدها ، والمحبر : ١٤٧ وما بعدها .

ابن جعفر فى إسهابه فى إعطاء المال، فقال: بأبى وأمى أنتما !! إن الله عز وجل عودنى أن يمدنى بماله، وعودته أن أفضل على خلقه ، فأكره أن أقطع العادة ، فتنقطع عنى المادة . . »[١].

وما رواه ابن عبد ربه من « أنه أعطى امرأة سألته مالا عظيماً ، فقيل له : إنها لاتعرفك، وكان يرضيها اليسير ، قال : إن كان يرضيها اليسير فإنى لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفنى ، فأنا أعرف نفسى »[٢].

ولعل من أعجب ما روى من أخبار جوده، ما رواه أبو الفرج : من أن أهل المدينة كانوا يدّانون بعضهم من بعض إلى أن يأتى عطاء عبد الله بن جعفر[٣].

ولهذه الوفرة فى الجود قصده كثير من الشعراء، ومدحوه ، بل لقد انقطع له بعضهم كعبد الله بن قيس الرقيات ، الذى كان ابن جعفر يصله ، ويقضى عنه دينه[٤] .

وعلى الرغم من جود ابن جعفر ، وسعة عطائه ، لا نجد للشماخ فى مديحه إلا أبياتاً من الرجز ، وهى قوله :

إنك يا ابن جَعْفَرٍ نعم الفتى
ونعم مأْوَى طارقٍ إذا أتى
ورُبَّ ضيفٍ طَرَق الحىَّ سُرَى
صادفُ زادًا وحديثاً ما اشتهى
إن الحديثَ طَرَفٌ من القِرى
ثم اللحافُ بعد ذاك فى الذَّرا[٥]

ولعمرى : إن هذا المديح المتهافت — مبنى ومعنى — لايتناسب مع شهرة

---

(١) الفاضل : ٣٣ .
(٢) العقد الفريد : ١/١٥٠ .
(٣) الأغانى : ١١/٦٦ .
(٤) راجع : الأغانى : ٤/١٥٨ . ومن مدح ابن جعفر من الشعراء : ابن هرمة ، والحزين ، وغيرهما (انظر الأغانى : ١١/٦٤ ، ٦٨) .
(٥) ملحق الديوان القطعة : ٥٠ .

ابن جعفر فى دنيا السخاء والشرف؛ ولهذا تعجب بعض الرواة من قوله هذا لابن جعفر مع قوله فى عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين [١]

ويرد الدكتور الكفراوى على هذا التعجب معللا ضعف مديح الشماخ فى ابن جعفر فيقول : « وليس لهذا العجب ، موضع فيما نعتقد؛ فالشعراء المتكسبون بشعرهم لا يهتمون كثيراً بشرف الأنساب ، بل يفتنهم ضخامة العطايا ، وقد كان ابن جعفر واسع الجود ، ولكن طلاب رفده أكثر من أن يتسع لهم ماله . . »[٢].

ومع احترامنا لرأى الدكتور الكفراوى ، فإننا لا نرى أن الشماخ اتصل بابن جعفر اتصال شاعر يحرص على أن يصيب من واسع عطائه ، إذ لو كان الأمر كذلك لما قصرت يد ابن جعفر عن أن تمتد إليه ، كما امتدت إلى غيره بكريم العطاء ، ولرأينا للشماخ فيه مديحاً آخر غير هذا المديح المتهافت .

ونحن بعد ذلك لا نعرف شيئاً عن سبب أو ظروف اتصال الشماخ بابن جعفر ، ومدحه إياه ، وأغلب الظن أن هذا الاتصال كان عابراً ، لم يتح لابن جعفر أن يخرج ذخائر الشماخ ، ودرر أشعاره .

٣ — اتصاله بيزيد بن مربع الأنصارى :

يزيد بن مربع بن قيظى الأوسى الأنصارى ، هو ابن عم عرابة بن أوس بن قيظى الذى تحدثنا عنه آنفاً . وهو مذكور فى الصحابة[٣] . ولا نعرف ظروف اتصال

(١) روى أبو الفرج سنده عن ابن دأب أنه قال — وكان قد سمع قول الشماخ هذا فى ابن جعفر — العجب للشماخ يقول مثل هذا لابن جعفر ويقول لعرابة :

إذا مارايـة رفعت لمجد تلقاها عرابـــة باليمين

ابن جعفر كان أحق بهذا من عرابة (الأغانى : ٨/١٠٢) . وابن دأب : هو أبو الوليد عيسى بن يزيد أحد بنى ليث بن بكر ، كان من أحسن الناس حديثا وبيانا ، وكان شاعرا راوية ، إلا أنه كان يصنع الحديث والشعر ، وأحاديث السمر ، فسقطت روايته ، وكان ينادم الخلفاء ، وتوفى سنة ١٧١ هـ. (راجع فى خبره : تاريخ بغداد : ٨٤٥ ، ولسان الميزان : ٤/٤٠٨) .

(٢) تاريخ الشعر العربى : ١/٦١ .

(٣) انظر : الاستيعاب : ١/١٩٧ ، ٣٧٥ ، والإصابة : ٦/٣٤٦ ، وأسد الغابة : ٢/٢٤٠ ، ٣/٢٥٤ .

الشماخ به[١]، إلا أن ما قاله الشماخ فى مدحه — على قلته [٢]— يشير إلى أن الصلة بينهما كانت قوية إلى حد أباح للشماخ أن يصرح بطلب رفده فى قوله :

وإنى لأَرجو من يزيد بن مَرْبَعٍ   حَذِيَّتَه من خَيْرَتَيْن اصطفاهما
حَذِيَّتَهِ من نائل وكرامةٍ   سعى فى بُغَاء المجد حتى احتواهما [٣]

كما صرح بذلك فى قوله لعرابة :

إليك أَشْكُو عَرَابَ اليومَ خَلَّتنا   ياذا العلاء وياذا السؤدد الباقى[٤]

وقد يكون سبب اتصال الشماخ به راجعاً إلى أنه ربما كان ينافس ابن عمه عرابة فى السيادة ، فلما سمع مدائح الشماخ فيه ، ورأى ما كان لها من أثر فى ارتفاعه ، أراد أن يحظى من الشماخ بمثل ما حظى به ابن عمه عرابة فوصله : خاصة وأن أباه «مربع بن قيظى» كان منافقاً — كما ذكرنا فى الحديث على عرابة — فلعل هذا أيضاً مما دفعه إلى أن يصل الشماخ بالعطية ، ليحظى منه بالمديح الذى ينسى الناس نفاق أبيه ، إلا أن الظاهر أنه لم يستطع أن يظفر بمثل مكانة عرابة عند الشماخ .

٤ — اتصاله ببكير بن عبد الله الليثى [٥] :

بكير بن عبد الله بن الشداخ الكنانى الليثى . عده بعضهم فى الصحابة ،

---

(١) راجع شرح البيت : ١٤ من القصيدة ، ١٧ فى الديوان .

(٢) لم يتجاوز ما قاله الشماخ فى مدحه : أربعة أبيات هى : ٢٠،١٤ — ٢٢ من القصيدة : ١٧ فى الديوان .

(٣) الديوان : القصيدة : ١٧ البيتين : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) الديوان : القصيدة : ١٢ البيت : ١٣ .

(٥) نسبه ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب : ١٧١ : «بكير بن شداد بن عامر بن الملوح ابن يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة .. » إلخ ، ونسبه ابن الكلبى فى : نسب الخيل : ٤٠ «بكير بن عبد الله بن الشداخ الليثى» والشماخ : بفتح الشين المشددة : هو جده «يعمر بن عوف» . قال ابن دريد فى الاشتقاق : ١٠٦ : «قالوا : سمى بذلك لأنه أصلح بين قريش وخزاعة فى الحرب التى كانت بينهم فقال : شدخت الدماء تحت قومى» وانظر : أنساب الأشراف : (١٠/لوحة ٦٩٨) .

وذكر أنه كان يخدم النبي (ص) وهو غلام ، فلما احتلم أعلم النبي (ص) بذلك فدعا له[١].

وكان من أهل الفضل والغناء فى الإسلام ، وقد مر بنا حديث اشتراكه فى القادسية وفتوح آذربيجان وأرمينية ، ورأينا أن الشماخ قد صاحبه فى كل هذه المشاهد ، وأنه كان مع سعيد بن العاص — أمير الكوفة — حين غزا آذربيجان فى أيام عثمان ، فأصيب بموقان[٢] .

اتصل الشماخ ببكير بن عبد الله فى هذه المشاهد — كما تقدم — ورأى ما أبداه من ضروب البطولة فيها ، فلما أصيب بكير بموقان رثاه الشماخ رثاء صادقاً ، يعبر عن عاطفة ملتاعة ، وتقدير عميق ، يتجلى ذلك فى قوله[٣] :

لقد غادرتْ خيلٌ بِمُوقَانَ أَسْلَمَتْ ... بُكَيْرَ بنى الشُّداخ فارس أَطلال
فتًى كان يروى سيفه وسِنَانَه ... من العَلقَ الآنى لدَى المجْحَر التالى
وقلت لهم : خُدُّوا له برماحكم ... بنازحة العُوَّادِ خفَّاقةِ الآل
فَبَكَّوْا قليلا ، ثم ولَّوْا وودَّعوا ... وقدغادروا فى اللحدلحمى وأَوصالى[٤]

وليس بين أيدينا للشماخ فى بكير إلا هذا الرثاء ، كما لم نجد له شعراً فى الرثاء غيره .

---

(١) انظر الإصابة : ١/١٦٩ ، وأسد الغابة : ١/٢٠٤ .

(٢) راجع : ص ١٣٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٣) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ الأبيات : ٥ — ٨ ، والبيتان الأخيران رويا مقدمين على البيتين الأولين وأخرناهما هنا لمناسبة المعنى .

(٤) أطلال : فرس بكير بن عبد الله . قال ابن الكلبى (نسب الخيل : ٤١) : «وكان [يعنى بكيرا] وجه مع سعد بن أبى وقاص، وشهد القادسية فيزعم — والله أعلم — أن الأعاجم لما قطعوا الجسر الذى على نهر القادسية صاح بكير بفرسه أطلال . وقال : ثبى أطلال ، فاجتمعت ثم وثبت فإذا هى من وراء النهر فهزم الله المشركين يومئذ . .» وانظر أيضا : أسماء الخيل لابن الأعرابى : ٥٣ ، والعلق : الدم الغليظ . والآنى : السخى والحار ، والمجحر : بضم الميم وسكون الجيم وفتح الحاء : المتخلف والتالى : الذى يتلوه . وخدوا له : أى شقوا له قبرا . بنازحة العواد : أى فى أرض بعيد عوادها : جمع عائد ، وهو من يزور المريض ونحوه . خفاقة الآل : يخفق سرابها ويضطرب : أى أنها أرض منقطعة عن الناس، بكوا : بالتشديد : لغة فى بكوا بالتخفيف .

ومما تقدم يتبين أن الشماخ لم يتصل — فى شعره على الأقل — بأحد من الرؤساء فى الجاهلية ، ولا بأحد من الخلفاء أو الولاة فى الإسلام ، مما يرجح ما سبق أن أشرنا إليه، من أن الشماخ كان — إلى حد ما — فى عزلة عن الحياة العامة فى الجاهلية والإسلام .

أما ما ينسب له من شعر فى رثاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ففى نسبة هذا الشعر إليه خلاف كثير ، وقد نفى بعض الثقات من الرواة والعلماء نسبته إليه ، وقد رجحنا نسبة هذا الشعر إلى أخيه جزء بن ضرار[١] .

صفاته وأخلاقه :

لم يكن الشماخ يتمتع بصفات خِلْقية جميلة، ففى أخباره أنه كان أحمر قصيراً [٢] كما تظاهرت النقول على أنه كان ممتعاً بإحدى عينيه[٣] ، ولا نعرف عن هيئته وخلقته أكثر من هذا .

وربما كانت دمامته هذه من أسباب ما منى به من إخفاق فى علاقاته النسائية ، زوجاً وعاشقاً كما مر بنا[٤] .

أما صفاته الخُلقية فقد نستطيع أن نتعرف — من شعره — على بعض جوانبها .

فالشماخ وإن لم يكن معدوداً من الشعراء الفرسان ، فإننا نجده يفتخر فى غير موضع من شعره بفروسيته ، وشجاعته ، استمع إليه يقول :

وقد علمت خيل بموقان أننى أنا الفارس الحامى لدى الموت نزال[٥]

وهو الحامى لمجد قومه ، الذائد عن حوضهم بسلاحه ، فى غير رهبة ، أو وجل :

إنى امرؤ من بنى ذبيان قد علموا أحمى شريعة مجد غير مورود

---

(١) راجع : ملحق الديوان : القطعة : ٣١ وانظر الكلام على نسبتها فى الهامش .
(٢) أنساب الأشراف : ١٢/ لوحة : ١١٠٥ .
(٣) جمهرة اللغة : ٢/٣٩٠، وشرح أدب الكاتب للجواليقى: ٣٥٥ ، واللسان والتاج (عور) .
(٤) راجع : ٩١ — ٩٩ من هذا الكتاب .
(٥) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ : البيت : ٩ .

معى رُدَيْنِىٌّ أَقوامٍ أَذودُ به عن حوضهم وفَريصى غير مَرعود(١)

وقد يكون فى هذا الفخر شيء من الادعاء والتقول ، بيد أن اتصاف الشماخ بالشجاعة والفروسية ليس بالأمر الغريب ، فهما من الصفات الشائعة فى فتيان البادية العربية .

ولعل أبرز مظاهر شجاعته وجلده ، ما يُدِلُّ به كثيراً، ويعده من مظاهر بطولته، مما نجده مردداً فى شعره، من قطعه للفيافى المقفرة المخوفة، لا يأبه بهاجرة مهما اشتد لفح حرها ، ولا يفزعه ليل الصحراء وأهوالها، حتى ألف الفلوات: وخبر دروبها ومسالكها ، من ذلك قوله :

ودوية تيهاء قفر مرادها مروت يكل العيس فيها ارتكاضها
إذا ما حرابى الظهيرة لم تقل نسأت بها صعراء طال امتعاضها
. . . .
ذعرت بها سرب القطا وهو هاجد وعين الفلاة لم تبعث رياضها(٢)

وقوله :

ودواية قفر تمشى نعاجها كمشى النصارى فى خفاف اليرندج
قطعت إلى معروفها منكراتها إذا خب آل الأمعز المتوهج(٣)

وقوله يصف نفسه فى رجز له :

أَروعُ خرَّاجٌ من الدَّوِيَّات
يسرى إذا نام بنو السَّرِيَّات
والنجم مثلُ الصَّمْج الرُّومِيَّات
يبيت بين شعب الحاريَّات

(١) الديوان : القصيدة : ٤ البيتين : ١٧ ، ١٨ .
(٢) الديوان : القصيدة : ٩ الأبيات : ٤ ، ٥ ، ٧ .
(٣) القصيدة : ٢ البيتين : ٣٠ — ٣١ .

جَوَّابُ ليلٍ مِنْجَرُ العَشِيَّات [١]

. . إلى غير ذلك مما جاء فى شعره .

وهو رجل ماضى العزيمة ، إذا هم بالأمر لا يتردد ، بل يصمم ويمضى فى أمره بعزيمة صادقة ، وثقة فى النفس متناهية ، وقد حدثنا عن ذلك فى قوله :

وعَوْجَاءَ مِجْذَامٍ وأَمْرٍ صَرِيمَةٍ تركتُ بها الشكَّ الذى هو عاجز [٢]

وقوله :

وكنتُ إذا ما شُعْبتا الأَمر شكَّتَا عزمتُ ولم يحْبِلْ همومى إباضُها

ولم يُسْلِ أَمرًا مثل أَمرٍ صَرِيمةٍ إذا حاجةٌ فى النفس طال اعتراضُها [٣]

وفى شعره أيضاً ما يسبغ فيه على نفسه صفة الحلم ، ويتمدح بأنه كثيراً ما أعانه حلمه على تجنب مواطن الهلاك :

ومرتبة لا يُسْتَقالُ بها الرَّدى تلافَى بها حِلْمِى عن الجهل حاجزُ [٤]

ومن صفاته التى ينم عنها شعره الحياء ، الذى قد يبلغ به إلى حد أى يستحى من إظهار عداوته لمن يعلم بغضهم إياه ، وحقدهم عليه :

أُجامِلُ أَقواماً حياءً وقد أَرى صُدُورَهمُ تَغْلى علَىَّ مِرَاضُها [٥]

وقد يفهم من حرصه على العناية بماله ، وإرهاقه الشديد لنفسه فى سبيل إصلاحه إلى الحد الذى أضنى جسمه ، وجعل امرأته تلومه على ذلك كما مر بنا [٦] . قد يفهم من ذلك أنه كان على شىء من البخل ، والحرص على المال والاهتمام الزائد بالقيام عليه وإصلاحه . كثيراً ما يدفعان المتصف بهما إلى الضن به ، بل إلى الشح والتقتير على نفسه وعلى غيره .

ومع ذلك فإننا نجده يعلل حرصه على العناية بماله واهتمامه الشديد بإصلاحه

---

(١) أراجيز الديوان الأرجوزة : ٢٢ الأبيات ١٥ — ١٨ والبيت الزائد فى الهامش .

(٢) الديوان : القصيدة : ٨ البيت : ٤ .

(٣) الديوان : القصيدة : ٩ البيتين : ١٤ ، ١٥ .

(٤) القصيدة : ٨ البيت : ٣ .

(٥) القصيدة : ٩ البيت : ١٦ .

(٦) راجع ص ٩٦ من هذا الكتاب .

تعليلا يدل على أنه رجل عاقل حكيم ، حسن التقدير ، فهو يرى أن الإنسان مهما أجهد نفسه فى سبيل إصلاح ماله، والعناية به ، والمحافظة عليه، فإن ذلك أصون لكرامته ، وأحفظ لعفة نفسه من أن يمد يده للناس بالسؤال وذلك قوله :

لمالُ المرء يُصلحه فيُغْنى مَفَاقِرَه أَعفُّ من القُنُوع
يسدُّ به نوائب تعتريه من الأَيام كالنَّهَل الشُّرُوع [1]

وهو من أجل الحفاظ على كرامته ، وعزة نفسه من أن يمتهنها بالسؤال ، آثر أن يجهد نفسه ، ويبتذلها فى سبيل العناية بماله وإصلاحه ، مع أنه كان يستطيع — لو أراد — أن يلعب ويلهو، ويصون نفسه ، ويريحها من عناء إصلاح المال والمحافظة عليه، نرى ذلك فى قوله :

ولو أَنِّى أَشاء كَنَنْتُ نفسى إلى لَبَّاتِ هَيْكَلة شَمُوع
تلاعبنى إذا ما شئتُ خَوْدٌ على الأَنْماط ذات حشًى قطيع [2]

ومع ذلك فقد تعرض الشماخ لسؤال عرابة الأوسى [3] ، ويزيد بن مربع الأنصارى [4] ، مما اعتبره ابن رشيق قادحاً فى مروءته، حاطًّا من قدره ، مسقطاً لهمته، عن درجة مثله من أهل البيوتات ، وذوى الأقدار [5] .

كذلك لم يأنف الشماخ من قبول الثمن القليل، من بعض عامة الناس فى مقابل شعره . روى البلاذرى قال : «قدم الشماخ المدينة ، فقالت له امرأة يقال لها "جَوْنة"، كان لها بنات موصوفات بالجمال ، وكانت تأبى أن تنكح الموالى ، ولم تكن العرب تخطب إليها ؛ لأنها وزوجها كانا من موالى قريش، من سبى العرب : إنى جاعلة لك جعلا، على أن تذكر بناتى لعلهن يخطبن، فقال لها : تهدين إلى جزوراً من مهر كل واحدة منهن، فقالت : ذلك لك، فقال :

ثلاثُ غَمَامَاتٍ تَنَصَّبْن فى الضُّحى طِوالُ الذُّرى هبتْ لهنَّ جنُوب

---

(١) القصيدة : ١٠ البيتين : ٤ — ٥ .
(٢) الديوان : القصيدة : ١٠ الأبيات : ٨ — ١١ .
(٣) و (٤) راجع : ١٢٠ من هذا الكتاب .
(٥) العمدة : ١/١٩ .

فتلك اللَّواتى عند جَوْنَةَ إنَّنى صدوق وبعض النَّاعِتِين كذُوب»[١]

إلا أن تكسب الشماخ بشعره كان قليلا كما سبق[٢]، وربما اضطرته إلى ذلك ظروف قاسية تجعل له بعض العذر فى ذلك، كاشتداد سنة، أو قعوده بدين لزمه، كما يشير إلى ذلك قوله :

تذكرتُ لمَّا أَثْقل الدينُ كَاهِلى وضَانَ يَزِيد مالَه وتعذَّرا
رجالاً مضَوْا منِّى فلستُ مقايضاً بهم أبدًا من سائر الناس معشرا[٣]

أما ما قيل : من أن الشماخ كان أحد من هجا قومه وأضيافه، ومنّ عليهم بالقرى، وأنه كان ميالا إلى الشر، سريعاً إلى نهش أعراض الناس، فقد ناقشناه بما فيه الكفاية فيما سبق[٤].

وفاته :

الثابت من شعر الشماخ أنه عاصر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه[٥].

ولما كان عثمان قد ولى الخلافة أوائل (سنة ٢٤ هـ) فقد بطل قول من قال: بأن وفاة الشماخ كانت (سنة ١٨ هـ)[٦] وكذا القول بأنه توفى (سنة ٢٢ هـ)[٧].

---

(١) أنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٤، وانظر : ملحق الديوان : القطعة : ٥ وانظر هامشه.

(٢) راجع : ١٢٠ — ١٢١ من هذا الكتاب.

(٣) الديوان : القصيدة : ٥ البيتين : ٩ — ١٠. ويزيد : هو مزرد أخو الشماخ.

(٤) راجع : ١٢١ — ٢٤ من هذا الكتاب.

(٥) وذلك قوله فى هجاء الربيع بن علباء السلمى :

لولا ابن عفان والسلطان مرتقب أوردت فجا من اللعباء جلمود.

(٦) ممن قال بذلك : جورجى زيدان : فى تاريخ آداب اللغة العربية : ١/٨٤، وتبعه عبد العظيم قناوى فى : الوصف فى الشعر العربى (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩ القاهرة) : ٣٠١.

(٧) ممن قال بذلك : خير الدين الزركلى فى الأعلام : ٣/٢٥٣. وتبعه : عمر رضا كحالة فى معجم المؤلفين : ٤/٣٠٦ قالا : «وتوفى فى غزوة موقان سنة ٢٢ سنة هـ» وقد تقدم أن هناك روايتين فى تاريخ غزوة موقان فى عهد عمر : إحداهما : أنها كانت سنة ١٨ هـ، والأخرى أنها كانت سنة ٢٢ هـ.

وينقل ابن حجر[١] والبغدادى[٢] عن المرزبانى : أن الشماخ قد توفى فى غزوة موقان فى زمن عثمان .

وقد مر بنا أن « موقان » فتحت لأول مرة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (سنة ٢٢ هـ وقيل سنة ١٨ هـ)[٣] ، وأن الشماخ كان أحد الشهود على كتاب الصلح بين المسلمين ، وأهل موقان[٤] ، ومعنى هذا أن وفاته لم تكن فى غزوة موقان هذه .

وتقدم كذلك أن أهل موقان نقضوا عهدهم مع المسلمين فى عهد عثمان ، فغزاهم الوليد بن عقبة والى الكوفة من قبل عثمان ، وأن ذلك كان (سنة ٢٤ هـ وقيل سنة ٢٥ هـ وقيل سنة ٢٦ هـ)[٥] ولم يرد مايشير إلى اشتراك الشماخ فى غزوة الوليد هذه .

كذلك سبق أن سعيد بن العاص ولى الكوفة لعثمان (سنة ٣٠ هـ) ، فغزا آذربيجان وأوقع بأهل موقان — وكانت هذه البلاد قد انتقضت مرة أخرى — وأن الشماخ كان مع سعيد فى هذه الغزاة[٦] .

ولا نعلم أنه كان هناك غزو لموقان فى عهد عثمان بعد هذه الغزوة .

وأغلب الظن أن الشماخ توفى فى إحدى الغارات على بعض نواحى موقان — أثناء هذه الغزوة الأخيرة — ولعلها غارة « سنجال » التى أشار إليها فى قوله — من قصيدته التى رثى بها بكير بن عبد الله الليثى الذى أصيب فى غزة موقان هذه :

ألا يا اصْبحانى قبل غارة سِنْجَال وقبل منايا باكراتٍ وآجال[٧]

---

(١) الإصابة : ٣/٢١١ .

(٢) خزانة الأدب : ١/٥٢٦ ، وشرح شواهد المغنى : ٢/٥٩٧ .

(٣) راجع : ص١٣٤—١٣٥ من هذا الكتاب ، وقد ظن من أرخ وفاة الشماخ (سنة ١٨ هـ) ومن أرخها (سنة ٢٢ هـ) ممن سبق ذكرهم — أنه توفى فى هذه الغزوة تبعا للخلاف فى تاريخها .

(٤) راجع — ص ١٣٥ من هذا الكتاب .

(٥) راجع الصفحة السابقة فى الهامش السابق .

(٦) راجع : الصفحة السابقة فى الهامش (٤) من هذا الكتاب .

(٧) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ البيت : ٣ .

وقد روى عن الأصمعى : أن بعضهم أخبره بأنه رأى قبر الشماخ بأرمينية [١].

أما ما يذكره ابن حجر : من أن المرزبانى روى مهاجاة للشماخ مع الجليح ابن سعيد الثعلبى ، وهما يسيران مع مروان بن الحكم ، وهو حينئذ أمير المدينة[٢] ، مما يفهم إدراك الشماخ لإمارة مروان بن الحكم على المدينة ، التى كانت فى عهد معاوية بن أبى سفيان[٣] ، فنحن نستبعد أن يكون الشماخ قد عمر حتى أدرك خلافة معاوية ، فوفاة الشماخ بأرمينية — كما تفيد رواية الأصمعى السابقة — وتوقف حركات الغزو فى بلاد أرمينية وآذربيجان بعد (سنة ٣٢ هـ)[٤] فى عهد عثمان . وما ذكره المرزبانى نفسه ، ونقله عنه ابن حجر والبغدادى ، من أن الشماخ توفى فى زمن عثمان كما سبق ، كل ذلك مما يشكك فى صحة هذا الخبر — المنقول عن المرزبانى — أو على الأقل فى أن تكون جملة « وهو حينئذ أمير المدينة » من كلام المرزبانى .

والذى نراه ، بناء على ما تقدم ، أن وفاة الشماخ كانت بين سنتى ٣٠ هـ و ٣٢ هـ .

---

(١) فحولة الشعراء (مطبوع) : ٢٠–٢١ ، والمخطوط (٧٤٥ أدب تيمورية–دار الكتب المصرية) .

(٢) راجع : ص ١٣٩ من هذا الكتاب .

(٣) فى طبقات ابن سعد : ٣٦/٥ أن مروان بن الحكم ولى المدينة لأول مرة فى عهد معاوية بن أبى سفيان وأن ذلك كان سنة ٤٢ هـ .

(٤) انظر : تاريخ الأمم الإسلامية : ٢٨/٢ .